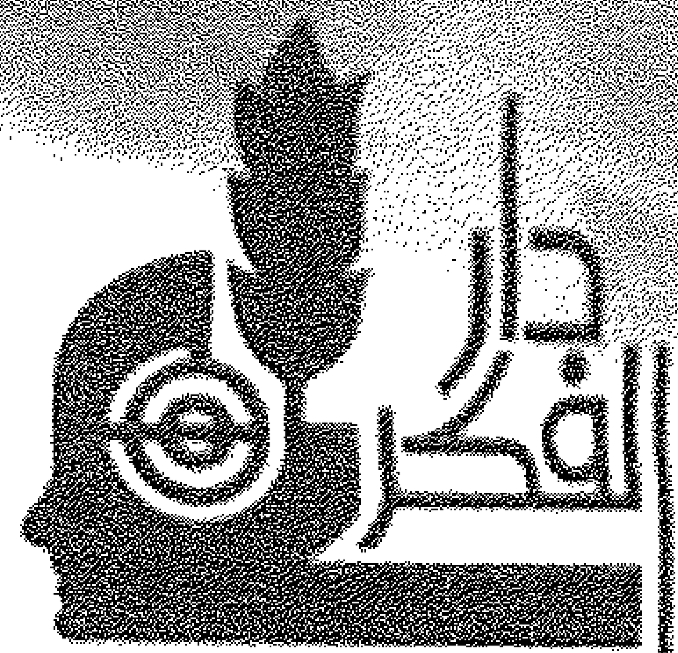
هداية سالم

ياليت قومي يعلمون



آفاق معرفة متجددة
www.fikr.com

بسم الله الرحمن الرحيم

يا ليت قومي
يعملون بما يعلمون

ياليت قومي يعملون بما يعلمون /هدايت سالم.- دمشق
دار الفكر ٢٠٠٦ .- ٢٠٠ص : ٢٠سم .
ردمك:1-59239-519-8

١-٢١٨,٨ س ا ل ي ٢- العنوان ٣- سالم
مكتبة الأسد

هدايت سالم

يا ليت قومي
يعملون بما يعلمون

الرقم الاصطلاحي: ١٩٢٤,٠٣١
الرقم الدولي: ISBN: 1-59239-519-8
الرقم الموضوعي: ٣٠١
الموضوع: مشكلات الحضارة
العنوان: ياليت قومي يعملون بما يعلمون
التأليف: هدايت سـالم
التنفيذ الطباعي: دار الفكر - دمشق
عدد الصفحات: ٢٠٠ ص
قياس الصفحة: ١٤×٢٠ سم
عدد النسخ: ١٠٠٠ نسخة

دار الفكر بدمشق
برامكة مقابل مركز الانطلاق الموحد
ص.ب: (٩٦٢) دمشق-سورية
فاكس: ٢٢٣٩٧١٦
هاتف: ٢٢٣٩٧١٧ - ٢٢١١١٦٦
Http://www.fikr.com
e-mail: info@fikr.com



مالك بن نبي
مشروع حضاري فعال
٢٠٠٦

الطبعة الأولى
ربيع الأول ١٤٢٧هـ
نيسان (أبريل) ٢٠٠٦م

إلى زوجي

الذي رافقني في دروب الحياة

فكان نعم الزوج

ونعم الصديق

ونعم السند

جزاه الله عني خير الجزاء

المحتوى

بين يدي الكتاب

لا أتوجه بأفكاري هذه، لأصحاب الفضيلة سادتي العلماء، فهم في بروجهم العلمية في غنىً عن أمثالي. ولا إلى المثقفين، فهم يعيشون في دنيا اصطنعوها بعيداً عما يفعله الناس، كلّ قد قنع بالدوران ضمن إطار الفكر الذي اعتنقه. كما أني لا أخاطب محترفي القراءة والاستفادة من ثمراتها، ففي قراءتهم غنىً عن المقتطفات التي جئت بها من هنا وهناك، ومن قول هذا المفكر أو ذاك، لا بدَّ إلى جانب الثقافة العالِمة، من ثقافة شعبية يفهمها المخاطبون بها، فأنا إنما أخاطب أمثالي من أنصاف المتعلمين، الذين يتهيبون القراءة الجادة، تضيق بها نفوسهم وعقولهم، أدردش مع ربات البيوت... مع المؤمنة التي اشتاقت إلى ربها بعد أن دوختها دروب الحياة المادية، فتاهت في شعابها، وعندما آثرت أن تنقذ ما تبقى منها عادت تتفيّأ ظلال شرعه وتتذوق طعم الإيمان. اختارت الصورة السلبية جداً من العبادة؛ أن تقف في صفوف المتفرجين والمنتظرين تتأسف، لما يجري حولها من اختلالٍ لموازين القيم، دون أن تمدَّ باعها للمساعدة في الإصلاح.

أتحدث مع أمي، وأختي، وحفيدتي اللواتي جمعتني وإياهن جلسات، وساعات حلوة - امتدت على مساحة أكثر من ربع قرن من عمري - نتجاذب أطراف مشاكلنا، فلا أسمع إلا اليأس، والإحباط: «وأنى هذا» - و«لن يتركونا وشأننا» - و«لن يسمحوا لنا بالإصلاح».

الكل يتحدث في ساس ويسوس وسياسة، مما تنقله وكالات الأنباء، من أنباء مقصود بها توصيلنا إلى هذه الحالة التي وصلنا إليها من اليأس، وقلة الحيلة، والشعور بعدم جدوانا، أصبحنا جميعاً محلّلين سياسيين نستطلع ما وراء الخبر، وما ليس واضحاً في السطور!! حتى ضاقت علينا الأرض من أقطارها، وضاقت علينا أنفسنا، واستسلمنا إلى يأس يقول: إن باطن الأرض أصبح خيراً لنا من ظاهرها، فهربنا إلى السبحة الطويلة وإلى اللطيفية، والبسملة، والصمدية، ننحر فيها أعمارنا، وأوقاتنا.

أقول لهن جميعاً ما قاله رسول الله ﷺ، لإحدى زوجاته التي تركها تنقل الحصى من مكان إلى آخر، تعدّ عليها تسبيحاتها، ذهب ليقضي حاجة من حوائج الناس ثم عاد ليجدها على ما تركها عليه فقال لها: ما زلت على الحال التي فارقتك عليها؟ قالت: نعم. فقال ﷺ: «لقد قلت بعدك أربع كلمات ثلاث مرات لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنته: سبحان الله وبحمده

عدد خلقه ورضا نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته»[١]. فالإسلام دين عمل، والخلق كلهم عيال الله وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله.

أقول: هيا يا أمي وأختي وابنتي. انقضى عهد النوم، وسفينتنا كادت تغرق، هيا إلى العمل يداً بيد، فإن مجتمعنا لا ينهض إلاّ بنا، وسفينتنا لا ينقذها من الغرق إلا جهودنا، فلنبدأ بتحديد الأهداف، ونبرمج خططاً للعمل، نبذل الوسع من الممكن وفيما نطيق، لعلّ الله يوسع لنا في وسعنا؛ نضع برامج لوصل أرحامنا المقطعة، العائلية، والفكرية، لندعو إلى حملة لتنظيف شوارعنا وأفنيتنا، ومجرى نهرنا العظيم الذي أثقلته الأوساخ عن الجريان والتصفيق - كما وصفه شوقي - فمن العيب أن تدعو بعض السفارات الأجنبية إلى حملات لتنظيف شوارعنا وأنهارنا، ولا نفعلها نحن.

نقوم بجولات توعية إلى الأرياف، والمناطق الفقيرة حول المدينة، لتوعية المرأة المسكينة المنزوية فيها، التي أصبحت رهينة المحابس كلها؛ حبس جهلها وتخلفها، وأمّيتها وفقرها، بالإضافة إلى ظلم زوجها الجاهل لها، زيارات توعية إلى المقاهي والنوادي، لنبين لأبنائنا وبناتنا ضرر النارجيلة والسيكارة التي تفشت كالوباء، تفتك بصدور أبنائنا وبناتنا...

---

(١) رواه مسلم، رياض الصالحين، ص ٩٠ رقم الحديث ١٤٤١.

وغيرها وغيرها... من الممكن الذي نقدر عليه، وليس بحاجة لا إلى جهود عظيمة ولا إلى أموال طائلة، إنما فقط إلى إرادة حازمة وتعاون على البرّ والتقوى.

قد يقول قارئ: هل نترك عظائم أمورنا لتشغلنا هذه الصغائر؟ وأنا أقول: إن هذه الصغائر، أصبحت كومة كبيرة تسد أفق أيامنا، وتقلق راحة مجتمعنا، ورب قارئ آخر يقول: وأين الجديد في كلّ ما ذكر، كلنا نعرف هذه الأمور ونعلم كيفية معالجتها، كلٌّ يقول على شاكلته، لكني أقول: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الذاريات: ٥١/ ٥٥].

هدايت سالم

دمشق ٢٠/٧/٢٠٠٥

توطئة

انشغل العالم الإسلامي من محيطه إلى خليجه، وبكل وسائل إعلامه بعض الوقت، بقضية السيدة التي أمّت فئة من المصلين في صلاة جمعة في أمريكا، الأمر الذي أنسانا كل داءاتنا المميتة، وقضايانا الكبرى، لتشغلنا تلك القضية الجانبية... فكنا أشبه بمريض مشرف على الموت، لكن أطباءه انصرفوا عن إنقاذ حياته لإجراء عملية تجميل لأنفه؛ لأنهم اكتشفوا أنه غير متناسق مع تقاطيع وجهه.

كان من الممكن لهذا التصرف الشاذ أن يمرّ كما مرّ غيره من نتوءات حادة أحياناً في تاريخنا، لكنها لا تلبث أن تموت في مهدها، وتُنسى مع مرور الزمن. إلا أن تسليط الأضواء، والضجة الإعلامية التي سبقتها ورافقتها، قد استنفرت فرسان الفضائيات لعقد ندوات تبين موقفهم الفقهي، الذي تراوح بين محرم وكاره، ومعارض ومؤيد، فأعطت الأمر أهمية لا مبرّر لها.

ما أظن أنّ ما يلاقيه أهلونا في فلسطين، وما يدبر من مكائد لهدم أقصانا المبارك، ولا المآسي التي تتناقلها وكالات الأنباء عن الدماء التي تسفك يومياً في العراق، ولا تدنيس المصحف الشريف، تأخذ مثل هذا الاهتمام، حيث تمر أخبار فظيعة

كموت المئات، وإلقاء المصاحف في المرحاض، كأنها حوادث بسيطة في شريط الأخبار يظهر على أسفل الشاشة، بينما تركز العناوين الرئيسية على خبر مثل خبر تلك السيدة الذي لا يستحق سوى أن يكون خبراً عابراً.

هذه هي إشكالية التحيز كما يسميها الدكتور عبد الوهاب المسيري؛ يشغلون المُشاهد أو القارئ بما لا يهم، فيُنسى الأهم.

«أورد مثالاً على ذلك أن صحيفة عربية كبرى، ظهرت وعلى صفحتها الأولى عنوانٌ ضخمٌ عن حادث تصادم قطارين في إحدى قرى الهند، راح ضحيته عدد من القتلى والجرحى، وهو حادث عرضي، يحصل في أنحاء العالم، لكن خبراً صغيراً في صفحة داخلية أورد نبأ ارتفاع عدد الأطفال غير الشرعيين في بريطانية، بشكل ملحوظ!. من الذي أعطى أهميةً لحادث القطار العَرضي، وحجبها عن الإحصائية الثانية التي تتحدث عن المواليد غير الشرعيين؟!»[1]. هذه الإحصائية التي تشكل أزمة لأي مجتمع تحصل فيه، لكنها قوة الإعلام والإيحاء التي توحي لنا أنه إذا حصل عندنا من التسيب الأخلاقي، ما أعطى مثل تلك النتائج فهو أمر عارض من عوارض المدنيّة والتحديث، لا يقام له وزن.

---

(١) عبد الوهاب المسيري، إشكالية التحيز، ص ٣٠، إصدار المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٩٨.

مدخل

لا شك أن الإسلام والإرهاب، صارا منذ الحادي عشر من أيلول، وما تبعه من تداعيات، ثنائية غير قابلة للفصل في الذهنية الغربية... أنت مسلم، فأنت إرهابي، أو مشروع إرهابي في المستقبل، لا يهم انتماؤك القومي أو الوطني، سواء أكنت سورياً أم مصرياً، سعودياً أم مغربياً، أصولياً أم متحرراً، محافظاً أم مقلداً أم مجدداً أم مستنيراً، أنت عربي مسلم، فأنت بما تحمله من معتقدات - التزمْتَ بها أم لم تلتزم - قنبلة موقوتة قابلة للانفجار في أي حين، لتدمر قيم الحداثة الغربية من علمانية، وديمقراطية، وتقدم وحرية.

ولو كنت قابعاً في قعر دارك، وزاوية بلدك، لم تغادرها يوماً... فستبقى متهماً بأنك تهددهم في عقر ديارهم، حتى لو ثبتت براءتك، فأنت أبداً متهم!! شغلوا أنفسهم بك وبدينك، متخذين منك عدوهم الأوحد، بعد انهيار عدوهم القديم الاتحاد السوفييتي، (لا بدّ لهم من إيجاد عدو، يجعلونه هدفاً، يوحدون صفوفهم ضده).

يشكلون لجاناً ويعقدون مؤتمرات للبحث في كيفية تغيير

عقيدتك، دون أن تشعر، وسحبِ بساط الإيمان من قلبك وأنت لا تدري.

ليفصّلوا لك ديناً ومعتقداً يتناسب مع قياس مصالحهم وأهوائهم. أما من يستعصي على التغيير، متمسكاً بثوابته، فلا بدّ من الحجْر عليه، أو إبادته وتصفيته، حتى لا يبقى حجر عثرة في درب الحداثة وأهلها.

على مرّ التاريخ قامت عمليات إبادة وإزاحة عن الجغرافيا، وإزالة من التاريخ تحت كثير من المسميات، كشوف جغرافية، استعمار، تعليم وتحديث، تعددت الأسباب والأسماء، والمضمون واحد، القوي يجد دائماً لنفسه مبررات، يقنعها بها أنه على الحق مهما ظلم، وأنه عادل مهما قهر، وأنه متحضر مهما تردى في دركات الهمجية!!

تنوع الخطاب بين مجاهر بالعداوة، وقائل إن خيرات الأرض لم تعد تكفي لإشباع الجياع الذين يتسكعون على موائد المتخمين، فلا بأس من إزاحتهم عن الطريق، ومن قائل إن حقائقه العلمية أثبتت أننا نحن دراويشَ العالم الثالث أو (الرابع) مشكوك في إنسانيتنا، ووعينا، وثقافتنا، مما يفقدنا الأهلية للحياة الكريمة، ويدفعهم إلى فرض وصايتهم علينا، ما دمنا ندين لدين غير دينهم، ونحمل فكراً ونظرة للحياة تختلف عن فكرهم ونظرتهم.

تبقى النتيجة واحدة، قدْح وذم دائم للإسلام وأهله وعقائده وكل ما يمثله، اعتذر بابا الفاتيكان الراحل لليهود، عما سببته لهم المسيحية من آلام. فمن يعتذر للمسلمين الذين احتلوا بقدرة الإعلام الحديث، وسطوة المسيطرين عليه، مكانة اليهودي المحتقر في المخيال الجمعي الغربي، الذي ارتفع المساس بساميته المقدسة إلى مرتبة الكفر، والجريمة التي يعاقب عليها القانون؟.

حمى الإسلام المسلمين في نكباتهم الشديدة التي مرت بهم، ومروا بها، لائذين به في شدتهم معتصمين فيه من مصائبهم، يعضون عليه بالنواجذ، مهما عصفت بهم الأنواء، يحدوهم يقين أنهم بخير ما دام قرآنهم بخير، حياً طرياً كما أنزل على نبيهم ﷺ، أزمات تمر، ويبقى القرآن محفوظاً في الصدور قبل السطور، تتناقله الأجيال، جيلاً بعد جيل. وهل ينسى التاريخ قول رئيس وزراء بريطانية العظمى كلاوستون، عندما كانت الشمس لا تغيب عن مستعمراتها، حين رفع المصحف بيده قائلاً لوزرائه ونوابه في مجلس العموم: «لن نتمكن من المسلمين ما دام هذا القرآن في أيديهم».

أما بعد زلزال أيلول المشؤوم، فقد نشأ اعتقادٌ طاغ لدى صانعي القرار في البيت الأبيض الذي تربع ساكنه على عرش العالم دون منازع، أن الجماعات الجهادية التي صنعتها أجهزة

الاستخبارات الأميركية على عينها، فدربتها وأمدتها بالسلاح لتخدم مصالحها، ليست المسؤولة عن الإرهاب[1]، إنما المسؤول هو القرآن الكريم - الذي قد يختلف المسلمون فيما بينهم على كلّ شيء، إلا عليه - فهو دستورهم الذي يرسم خطاهم، وهو صراطهم المستقيم الذي يستمدون منه معالم طريقهم، وشرائع دينهم، قد يشردون عنه حيناً بعد حين، لكنه دليلهم الدائم لتصحيح المسار.

لم تعد الحرب الفكرية مستترة كما كانت في الماضي، وما عاد السم مدسوساً في الدسم، فقد أضحت معلنة ومنشورة على الملأ، بل وحدّد القوم لها آجالاً معينة - للبدء في التنفيذ، وللانتهاء منه أيضاً - (حتى يفنى الجيل الحالي الذي يُمسِّك بالكتاب)، وقد بوشر في تنفيذها بأيديهم وأيدي المسلمين أنفسهم، لزحزحتهم عن دينهم والتشكيك في صلاحيته، وتشويه قرآنهم والطعن فيه، وحرفهم عنه، بإفراغه من حقائقه - إذا كان إخراجهم منه بالقوة غير مستطاع - مستعينين بأحدث ما وصلت إليه وسائل الاتصالات الحديثة، من مرئية، أو مسموعة أو مقروءة، إضافة إلى الأفلام السينمائية التي ترسم عن العربي

---

(١) عندما كانت تلك الجماعات تحارب الروس في أفغانستان، كان جهادها مقدساً ومباركاً، أما عندما انقلب السحر على الساحر، فقد أصبحت جماعات إرهابية يجب أن تستأصل شأفتها.

المسلم، أسوأ الصور. أما مواقع الإنترنت فهي تفيض تشهيراً بالإسلام واستهزاء بأهله.

وبين حين وآخر يخرج علينا أكاديمي يدعي التجرد والأمانة العلمية، لتظهر نتائجه المخبرية، أن العربي المسلم بالذات، ليس في إمكانه أن يكون متحضراً، ولا مستوعباً للعلوم الحديثة، ولو عاش بينهم، فتعلم علومهم، وتنفس الهواء الذي يستنشقونه، ولو خرج من جلده، وانسلخ عن أهله وقومه متنكراً لهم؛ لأن في مورثاته العضوية خللاً وفي منظومته الفكرية حاجزاً، يمنعانه من أن يصير مثلهم، (هذا ما يردده محمد أركون وعلي شريعتي بأسىً كبير كلّ على حدة). أما الحقيقة المغيبة فإن أشهر الأطباء في الغرب وأنجحهم هم عرب ومسلمون!!.

وبعد أن سقط برقع الحياء الذي كان يغطي ما في الصدور، فقد أخذ بعض رجال الدين من المولودين حديثاً، بعد تزاوج سياسي مشؤوم بين المغضوب عليهم والضالين، يعلن في موعظته الدينية: أن أتباعه لن يكتمل إيمانهم، أو يدخلوا مملكة السماء، إلا إذا أحبوا للصهيونية وأهلها، أكثر مما يحبونه لأنفسهم من الخير، وكرهوا المسلمين وإلههم ونبيهم، وكتابهم كرهاً عقائدياً لا شفاء منه (لا أدري أين يهرب من كلام سيدنا عيسى عليه السلام: «أحبوا أعداءكم»، هذا إذا كنا أعداءهم) يلقي على سامعيه في الكنيسة والمنقول في بث حي ومباشر إلى الجالسين في

بيوتهم - ليكون الإيذاء للمسلمين أشمل وأعم - أبشع ما في قاموسه اللغوي من بذاءة، يلصقها بنبيّنا الكريم كذباً وافتراءً، ناعتاً إياه أنه دعيٌّ كاذب، خلط شيئاً من اليهودية، على أشياء مما يسمعه عن النصرانية، ليؤلف كتابه المزيف!! إضافة إلى أنه شاذ يغتصب الأطفال وهو زير نساء!! [لا أدري كيف يغطي روائح رجال كنيسته النتنة ويستر فضائحهم المدوية].

يتلقى المؤمنون به الخاشعون هذا الهراء والتجديف بالتصديق المطلق، وكأنه كلام لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تهب المنظمات الإسلامية لتقدم الشكوى تلو الأخرى، احتجاجاً على انتهاك حرمات المسلمين، ومعتقداتهم - التي ضمنها لهم ميثاق الأمم المتحدة - مدافعين عن قرآنهم وسيرة نبيهم، فيأتي الرد عليهم باعتذار باهت، أو يتجاهل أمر شكاواهم فيسكتون على مضض، بعد أن تكسرت السهام التي تنهال عليهم من كل حدب وصوب. أما إذا تجرأ أحد من المنصفين منهم، فجهر بكلمة حق عما يرتكبه المتصهينون؛ القدامى منهم أو الجدد، من جرائم ضدّ الإنسانية، فإن الدنيا تقوم عليه ولا تقعد، لأنه مسّ السامية وأظهر معاداتها، فأساء إلى شعور بني صهيون المرهف، وهذا ذنب لا تغسله توبة!!

إنها حملة شعواء لاستعداء العالم ضدّ المسلمين، حشدوا لها خيلهم ورَجِلهم، حتى أضحى المسلم أينما كان موقعه على ظهر

هذه البسيطة، يصحو على شتيمة لدينه، ويمسي على طعنة في قرآنه، ويتغدى بافتراء كاذب على نبيه!!

أما آخر ما طلع به علينا كبيرهم الذي علمهم السحر، فهو أن السماء قد اختارته بالذات ليكون نبي هذا العصر، ليعيد الأمور المعوجة إلى اعتدالها، فأوكلت إليه بإيحاء مباشر إصلاح شأن أهل الأرض، وتعليمهم الديمقراطية بطريقته الخاصة جداً.

قد جعل أكبر همه في ولايته الثانية، تخليص المسلمين من جهلهم وتخلفهم، ليجدّد لهم دينهم على الشكل الذي يرتضيه لهم، يمحو منه ما يشاء، ويثبت ما يشاء، فهو لا يُسأل عما يفعل!! لكن الجميع مسؤولون أمامه!! أليس أهل الأرض هم الذين ملكوه عليهم والسماء قد اختارته؟!

انطلق من رؤياه التوراتية التي عبث بها المتصهينون على الشكل الذي يخدم مآربهم، مستعيناً بقوة مدمرة ما ملكها فرعون قبله، واعداً بإعادة مملكة الرب، وبناء هيكل بني صهيون، فهو يقتل ناساً، ويشرد آخرين، ويدمر مدناً على رؤوس ساكنيها، منفذاً هلوساته الدينية، ليعجل عودة المسيح عليه السلام إلى الأرض، ليقتل الأشرار، ويعيد إلى الأرض السلام، وينشر بين الناس المحبة والوئام، فقد استبطأ تلك العودة المأمولة، وكم باسمك يا الله ترتكب آثام وتسفك دماء!!

أما المسلمون المتخلفون الذين يولدون موسومين بالإرهاب، فسيعلمهم مبدأ التسامح مع قاتليهم المسالمين جداً، أطلق بوش على شارون لقب رجل السلام لما يبذله من أجل إحلال السلام في فلسطين، لكن الفلسطينيين الذين يتسلون بتفجير أنفسهم لقتل الأبرياء، يرفضون السلام معه!!

شبه أحد المفكرين ما تفعله أميركا من فرض عولمتها على العالم باتجاه الرأي الواحد والنمط الواحد، بأنها تحاول أن تحمل العالم كله في سفينتها، التي هي أشبه ما تكون بسفينة التايتنك الشهيرة، التي اغتر صانعوها بأنفسهم، فكتبوا أمام تاريخ صنعها: «لا أحد يستطيع إغراقها حتى الله نفسه»، ولا يخفى على أحد مصير التايتنيك المشؤوم وارتطامها بجبل من الجليد، إن سفينة العالم التي يعد بوش نفسه كبير ربانيها، تواجه جبالاً جليدية ضخمة ورياحاً عاتية، لا أحد يعلم على أيها ستتحطم[١].

استكبر فرعون العصر هو وجنوده في الأرض، وعلوا علواً كبيراً، وإذا كان نيرون قد أحرق روما في لحظة جنونه، فإن بوش بجنون علومه سيدمر العالم، مستغلاً كل ما أفرزته حضارته من

---

(١) د. مصطفى المرابط، أستاذ في كلية العلوم في المغرب، محاضرة ألقاها في مكتبة الأسد بتاريخ ٢/٧/٢٠٠٥.

منتجات، يغدق على من يطيعه وينفذ أوامره من خيرات أشيائه؛ التي استعبدت عادات الناس، وأذواقهم، عن طريق الدعايات التي تمطرها سماوات أقماره الصناعية، لتقتحم علينا، عاداتنا وعوائدنا، وتزين لنا بأننا سنكون خارج الزمان والمكان، إذا لم نأكل ما يطبخه لنا ماكدونالدز على طريقته، ولم نشرب ما تسقينا إياه شركات الكولا التي تعملقت لتعم خيراتها العالم، فأغنت الناس عن مشروباتهم المحلية، وعن رائحة طبيخ أمهاتهم ونكهة قهوتها، أما من لم يلبس الجينز المهترئ والمهلهل، فهو لا يزال يعيش عصر البداوة، ولم يذق طعم المدنية، ذلك كله بالإضافة إلى أفلام الأطفال التي تتولى إفساد فطرهم النقية، والمسلسلات التي تروج للجنَّة التي أقاموها في الأرض، لتغنيهم عن جنة السماء التي يطمح المؤمنون لدخولها.

ومن لم يقبل بهذا ويرضَ به فله الدبابة، وقاذفة القنابل، وراجمة الصواريخ، بالإضافة إلى عائلة الأسلحة الكيماوية، والعنقودية، وما أبدعته الضمائر الميتة من أدوات الموت، ليحيلوا المدينة التي يصبّون عليها سوط العذاب بغية تأديبها، إلى جهنم حمراء على من فيها، وما فيها [كان أنموذج تحرير العراق رائعاً برأي الفرعون الأكبر، إذ خلصهم من ظلم صدام وسجونه ليذيقهم الموت والذل في سجن أبو غريب].

وبعد أن ﴿سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ

عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ٧/١١٦] استخف أقواماً منا فأطاعوه متسابقين إلى تقديم التنازلات سراً وعلانية، لنيل رضاه، مفتحين له كل الأبواب، أبواب بلدانهم وبيوتهم، وعقول نسائهم، وقلوب أبنائهم، يملؤها حيث يشاء، حتى قيل إن استعمار البلدان الذي ذاقه عالمنا، وعانينا ويلاته في القرن الماضي، أرحم وأخف وطأة من استعمار العقول والأذواق؛ فذاك يزول بزوال جيوشه عن البلاد، أما هذا الاستعمار الجديد، فمن لنا بزواله، وقد استوطن قلوبنا، وخضعت له نفوسنا، وأهلونا، وخرّب فِطَرنا من داخلها؟!!

إننا نعيش حالة طوارئ نحياها، وفتن كقطع الليل المظلم تحيط بنا، مستهدَفين في أدق تفاصيلنا، مستعمرين في عقر خصوصياتنا ومبادئنا.

هل نستمر في البكاء على أطلال خيباتنا، ونندب سوء حظنا؟ إلى متى ندفن رؤوسنا في رمال خلافاتنا، مستمرين في تناحراتنا المذهبية، والفكرية، والأيديولوجية. حتى قرآننا، الثابتُ الوحيد في وجه الرياح التي تعصف بنا، لم يتركوه لنا، فعمدوا إلى تحريف آياته عن مواضعها، حذفٌ هنا، وزيادة هناك، مشابهة في الكلم ومخالفة في المعنى، ثم سموا هذا التحريف الذي طلعوا به: فرقاناً حقاً - وهو باطل وليس بفرقان - بدؤوا بطرحه في الأسواق، ليتسلل إلى عقول أبنائنا!!! على ما امتلأ به تاريخنا

من أزمات، وما ذاقته، أمتنا من ويلات، لعله لم يمر بنا ما نتجرع مرارته الآن، ونحن لاهون غافلون عما يحاك لنا كأن الأمر لا يعنينا!!

تغتصب كلّ عام قطعة من جسدنا، وتستباح دماء أبنائنا (إن أرخص الدماء في العالم اليوم هو الدم المسلم) يشوه تاريخنا، وحاضرنا، وتسد المنافذ في وجه مستقبلنا، حتى لا نحلم به على شكل أفضل.

مسلم اليوم يقف حائراً على مفترق أمره، لا يدري من أمره شيئاً، يتمنى أن يعيش يومه دون أن يغضب ربه، ويعيش دنياه كما يعيش بقية البشر الأسوياء. وبين فقه التعسير وفقه التيسير، واختلاف ما سطّر في الكتب عما يجري في أرض الواقع، وبين الرأي والرأي الآخر، والأفضل، والأحوط، وسدّ الذرائع، يفقد المسلم استقراره الإيماني، الذي تعمل فيه تخريباً قوارض الإيمان الوافدة أو الراكدة، فتزيده حيرة على حيرته.

مسلم اليوم حزين مقهور من بطش أعدائه، وظلم أولي قرباه، حائر يتلفت لا يدري لماذا تخلت عنه السماء، وتآمر عليه أهل الأرض، فقد طموحه الكبير في أن تكون أمته كما أرادها ربها خير أمة أخرجت للناس، إنه يتمنى فقط أن يساعده علماؤه وأولو أمره، أن يكون مثل بقية الناس.

مهما حاولنا أن نتشاغل بتوافهنا عن واقعنا المزري،

فالإسلام في تقلص مستمر، إنْ في امتداده الجغرافي، أو في ولاء المؤمنين به، الذين لا يصمدون طويلاً أمام أساليب المبشرين الحديثة، وإغراءاتهم الكبيرة، بعد أن فقدوا بسبب عوامل الجهل والتخلف كثيراً من مناعتهم الإيمانية.

وإن المرء لفي عجب، لما يبذلونه من جهد ومال في سبيل نشر أباطيلهم، وما يقصّر به أصحاب الحق من الدفاع عن حقهم الذي يدينون به ويعتقدونه [تقدمت أفواج المبشرين الجيوش الغازية في دخول العراق].

هل يمكننا أن نغض الطرف عما يحصل في أندونيسية، أو إفريقية، أو في الحبشة وموريتانية، حتى وصل النشاط التبشيري إلى مصر وسورية، والأردن، إضافة إلى السعودية وأقطار المسلمين كافة؟ إن الخطّة التي وضعت منذ سنوات في معهد زويمر في كولورادو لتنصير الكفرة من المسلمين تنفذ بحذافيرها، ومهما بلغت درجة تفاؤلنا، فإنهم في النهاية يحصلون على مرادهم، فإن سلم الآباء، فإنهم مكتفون بالأبناء، فهم عجينة لينة لن تصمد طويلاً أمام فضائيات التبشير، ومواقعه الإلكترونية، ولا أمام وعودهم البراقة التي تُغدَق إن صدقاً، وإن كذباً.

(ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين)، كتاب ألفه المرحوم أبو الحسن الندْوي، منذ ما يقرب من نصف القرن تقريباً، يبين فيه كم دفع العالم الثمن غالياً نتيجة تنحي المسلمين عن دورهم في قيادة العالم، ليتفيأ نور الإسلام، وينعم بعدله، نتذكر هذا

الكتاب اليوم، لنقول: ماذا خسر المسلمون، والعالم معهم، بتخليهم عن الدور الكبير الذي خلقوا من أجله بوصفهم حملة رسالة ربانية، لتعمير الأرض وعدم خرابها، وهداية الناس، وإصلاح ما اعوج من شؤونهم، وبأن ينشؤوا خير أمة أخرجت للناس؛ الأمة المثل، الأنموذج، الأمة القطب التي يُستمد منها ويُقتدى بها، الشامة بين الناس، كما علمهم نبيهم بإنشاء مجتمع المدينة، وإقامة دولة الإسلام. ما أشبه اليوم بالأمس، فظلام الأرض، يشبه الظلام الذي عمها قبيل مطلع الرسالة المحمدية، فقد ورد في الحديث الشريف ما معناه: «إن الله قد اطلع إلى أهل الأرض فمقتهم جميعاً عربهم وعجمهم إلا بقية من أهل الكتاب»[(١)]. إن عرب اليوم ليسوا خيراً من عجمهم، فقد تخلوا واستهانوا بالنور الذي يحملونه، والرسالة التي أوكل إليهم نشرها، وأخذوا يحذون حذوهم حذو القذة بالقذة، ولو دخلوا جحر الضب لحشرنا أنفسنا وراءهم[(٢)].

بعضنا عرف الحق، فسكت عنه ابتغاء دنيا يصيبها، أو تجارة

---

(١) جزء من حديث رواه مسلم، نقلاً عن مقدمة فقه السيرة للمرحوم الشيخ محمد الغزالي.

(٢) «لتتبعن سنن من قبلكم حذو القذة بالقذة، حتى لو دخلوا جحر ضبّ لدخلتموه، قالوا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟» ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ١٠ - ١٠٦ عن تيسير الوصول إلى أحاديث الرسول، موقع المحدث الإلكتروني.

يخشى كسادها، فأصبح من المغضوب عليهم، وبعضنا الآخر تاه عن صراطه المستقيم، وغفل عن النور المبين فبات من الضالين.

حتى ربنا الكريم، الذي نتجه إليه في صلواتنا، سائلين إياه هدايتنا إلى صراطه المستقيم وألا يجعلنا من المغضوب عليهم، ولا من الضالين، قطعنا قنوات الاتصال به، وتنكبنا سنن هدايته، قاطعين ما أمرنا به أن يوصل، فأنّى يستجاب لنا؟ ومأكلنا حرام، ومشربنا حرام، وأكثر كلامنا نفاق!!

تُعجبنا نظرية المؤامرة، نريح بها ضمائرنا، ونقضي على نفوسنا اللوامة، وكفى الله المسلمين عبء الصلاح والإصلاح. نسارع بإلقاء اللوم على كلّ من حولنا، إنه إبليس وجنده، وأميركا وكيدها، إنها إسرائيل ومكرها بنا، فهي تتربص بنا الدوائر، إنه مشروع الشرق الأوسط الكبير، بل العالم بأجمعه.. أصبحنا شغله الشاغل!! ترك كلّ مشاكله الداخلية، وهموم تنميته، متفرغاً لنا ليبقينا في تخلفنا وجهلنا وأميّتنا، يعيقنا عن كلّ إصلاح، حتى عن إصلاح أنفسنا، وما في ضمائرنا!! ونحن المؤمنين الأتقياء المبرئين من المعايب، لا ندري في حيرتنا، واختلاط الأمور علينا لماذا يحصل لنا وبنا ما يحصل؟!! كما قال الشاعر:

نعيب زماننا والعيب فينا وما لزماننا عيب سوانا

دأبنا في رمضان، وفي يوم عرفة، وفي كلّ محطاتنا التعبدية،

أن نسأل ربنا بخشوع ودموع تنهمر من مآقينا أن يصلحنا ويصلح حكامنا، وأجهزة إعلامنا وقنواتنا الفضائية، حتى لا تستمر في كونها منافذ للشيطان إلى بيوتنا، أن يغير سبحانه مناهج تعليمنا لتصبح أكثر فائدة لأبنائنا، أن يصلح أبناءنا دون أي جهد منا في تربيتهم والمحافظة على فطرهم النقية من تلوث الفساد، أن يصلح أزواجنا دون أن نتقي الله في اختيارهن، وينصرنا على أعدائنا دون أن نعمل بأسباب النصر، أن يعيد لنا فلسطين دون أن نوحد صفوفنا لدعم أهلها ومساندتهم!! أن يرسل على بوش وجنده وأعوانه صاعقة من السماء، تستأصل شأفتهم وتريح الدنيا من شرور أعمالهم!! كما وأن يخسف الأرض بشارون وزبانيته!! إنها قائمة طلبات نتوجه بها إليه سبحانه وتعالى في مواسمنا الإيمانية، إضافة إلى الطلبات الخاصة جداً التي نسأله تحقيقها عاجلاً وكلّ يوم ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًۢا ﴿٧٧﴾﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٧٧].

أمَا آن لنا أن ننظر في أمرنا، لنرى لماذا غضب ربنا علينا، فلا يعبأ بدعائنا؟ ولماذا وصلنا إلى المرحلة التي ذكرها نبينا «قبل أن تدعو فلا يستجاب لكم»؟

تواكلنا فتركنا الأسباب التي سخرها الله لنا، كما سئم العالم من شكوانا، فأصم أذنيه عن سماع صيحاتنا، وصراخنا الذي كف عن إثارة شفقته علينا، بل غدا ذلك مدعاة لاحتقارنا،

والاشمئزاز من عجزنا، فحتى يدنا المكسورة (فلسطين التي ما فتئنا نشحذ عليها منذ نكبتنا بها) نضب معينها، فلم تعد تجلب لنا دريهمات المحسنين بعدما تبين لهم أنها تنفق بسفاهة وتبذير من القائمين على جمعها، فلا تصل إلى مستحقيها ولا ينالون منها شيئاً!!

الصراع الأزلي

ماذا علينا أن نفعل؟ إنه صِراعٌ أزلي، بين حق وباطل، بين مستكبر ومستضعف، بين افتراء علا زبده فغطى ما ينفع الناس ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْ فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ ۝١٢﴾ [غافر: ٤٠/١٢]، وحق مكمم لا صوت له.

رصد إدوارد سعيد في كتابه (الاستشراق) الذي صدر منذ أكثر من ربع قرن، الصورة المشوهة التي رسمت للعرب والمسلمين والإسلام، من خلال الكتب والدراسات التي تنشر بانتظام عن الإسلام وعن العرب، منذ مماحكات القرون الوسطى، وبدء عصر النهضة، مما لا يمكن أن يقال عن أي مجموعة دينية أو عرقية سوى العرب والمسلمين، فإنّ أي شيء يمكن عملياً أن يقال أو يكتب دون احتجاج من أحد أو اعتراض.

جاء في دليل جامعة كولومبيا، كما أورده الكتاب المعد عن برنامج اللغة العربية: إن كلّ لفظة بين لفظتين في هذه اللغة لها علاقة بالعنف، وإن العقل العربي، كما ينعكس في لغته، هو عقل تبجحي دون انقطاع.

كما طرحت مجلة هاربر منظومة تقول: إن العرب أساساً قتلة، وإن العنف والخديعة محمولان في المورثات العربية!!، كما ويكشف مسح دراسي بعنوان: (العرب في الكتب المدرسية الأميركية) عن معلومات خاطئة إلى الحد الأقصى من الإدهاش والفظاظة، إذ يؤكد أحد هذه الكتب، أن القلة من أهل تلك المنطقة يعرفون أن ثمة طريقة أفضل للحياة!! ثم يتساءل الكتاب ببراءة مصطنعة: ما الذي يربط شعوب الشرق الأوسط؟ ليجيب بالبراءة نفسها هو عداؤهم لليهود وللأمة الإسرائيلية[١].

يضيف في موقع آخر: إن الاستشراق القديم، وظف في خدمة الاستعمار؛ إذ كان المستشرقون موظفون يقبضون رواتبهم من وزارة المستعمرات البريطانية. يقول اللورد كرومر: ولأنني لست إلا دبلوماسياً وإدارياً، [موضوع دراسته هو الإنسان أيضاً...] فإنني أكتفي بالحقيقة التالية، وهي أن الشرقي بوجه عام، يتصرف ويتحدث، ويفكر بطريقة هي النقيض التام المخالف للأوربي[٢].

يذكر مالك بن نبي أن القسيس (هربرت) تعلم العلوم الإسلامية، ثم ارتقى عرش البابوية باسم (سلفستر الثاني) ليصبح المحرك الأول للحروب الصليبية الأولى[٣]، كما يذكر ما

---

(١) الاستشراق، إدوارد سعيد، مؤسسة الأبحاث العربية، الطبعة الثانية، ص ٢٨٧ بتصرف.

(٢) الاستشراق، إدوارد سعيد، مصدر سابق، ص ٧٠.

(٣) مالك بن نبي، شروط النهضة، ص ١٤٨، توزيع دار الفكر.

لاحظه (غوستاف لوبون): أن جميع الوسائل قد اتخذت لمحو الحضارة الإسلامية من سجل التاريخ. في سبيل ذلك زور الكتّاب الغربيون التاريخ، حتى ظهر في عيون من أخذ عنهم التاريخ البشري، ليس تلك السلسلة التي تتصل فيها جهود الأجيال، وإنما تختزل تلك المسافة لتبتدئ من (الأكروبول) في أثينا، وتنتهي عند قصر (شايو) في باريس أو أكثر من ذلك بقليل، وقد تظهر هذه الخرافة علمية في أعين قوم من أعلام المثقفين في أوربة، حتى لتعلو وجوههم الدهشة، إذا ما كشف لهم المتحدث عن وهم هذه المسافة، التي رأوا في مبتدئها ابتداء للحضارة، وفي منتهاها انتهاء لها، ولو أنهم دققوا الفكر والنظر الموضوعي، لوجدوا هوة كبيرة، تفصل بين حضارة أرسطو وحضارة ديكارت، وأن تلك الهوة من القرون هي الحضارة الإسلامية، غير أن المدنية الحديثة، تخطت الحضارة الإسلامية (التي تحمل رسالة الإنسانية)، لتأخذ من حضارة الرومان روحها الاستعمارية، ويعترف المستعمرون أنفسهم بذلك من حيث لا يشعرون، حين يردون فكرهم وأعمالهم إلى حضارة الرومان وعبقريتهم، ومن هنا نرى أن الحضارة الغربية قد رجعت بالإنسانية في التاريخ إلى ما قبل الحضارة الإسلامية بألف عام[١].

---

(١) مالك بن نبي، شروط النهضة، ص ١٤٩، مصدر سابق.

لقد بدأت النهضة الأوربية - كما يذكر بعض المنصفين منهم - بعد اتصال الغرب بالشرق. «في خلال قرنين من الزمن، نُقل إلى العربية كلّ ما خلفه الإغريق من التراث العلمي على التقريب، وأصبحت بغداد، والقاهرة، والقيروان، وقرطبة مراكز لامعة لدراسة العلم وتلقينه... وأخذت المعرفة بهذه الثقافة الإغريقية العربية تتسرب إلى أوربة الغربية، أواخر القرنين الحادي عشر، والثاني عشر، ولم يأتِ تسربها إثر الغزوات الصليبية، لكنه جاء عن طريق صقلية إلى إيطالية، ومن إسبانية المسلمة إلى إسبانية المسيحية ثم إلى فرنسة.

وتسابق الرجال ذوو العقول اليقظة إلى بالرمو في صقلية وإلى طليطلة في الأندلس لتعلم اللغة العربية، ودراسة العلوم العربية، وكان معظمهم آنذاك من الإنكليز.

وقضى بعض الطلاب سنين عدة في إسبانية، ثم قضوا أعمارهم كلها في عمل مقصور على ترجمة الكتب العلمية العربية إلى اللغة اللاتينية. وعلى هذا النحو كانت أوربة قد استولت في مستهل القرن الثالث عشر على محصول العلم الإغريقي والعربي بحذافيره، وأصبح تدريس العلم في الجامعات الحديثة من الأمور المقررة المتفق عليها...

وكانت من بعد ذلك المخترعات الحديثة التي أخذت أصولها من المسلمين... ثم عاد هؤلاء لقتالهم ثانية بأسلحة لا عهد لهم بها»[١].

يقول توينبي: «وهكذا في غضون فترة تقل عن القرن، لم يقتصر الأمر على الإحداق بالعالم الإسلامي، ولكن أمكن تطويقه تماماً.. في أواخر القرن السادس عشر وأوائل السابع عشر وضع الطوق حول رقبة الفريسة»[٢].

كان ذلك الاستشراق القديم، الذي أطلق عليه إدوارد سعيد صفة الاستشراق اللين، الذي كان على الرغم من سوء منبته، يمزج الكراهية بشيء من الموضوعية، فيخلط فرية كاذبة بجزء من حقيقة، احتراماً لمبدئه العلمي.

لكن الاستشراق الصلب بدأ منذ ما بعد الحرب العالمية الثانية، وبشكل أكثر بروزاً بعد الحروب العربية الإسرائيلية، بحيث أصبح العربي المسلم شخصية قابلة للاستهزاء في الثقافة الشعبية الأميركية إلى أبعد الحدود.

---

(١) سبيل الدعوة الإسلامية، الدكتور أمين المصري، ص ١٣٦، دار الأرقم، الكويت، طبعة أولى.

(٢) مختصر تاريخ توينبي ٣/ ٣١٠، نقلاً عن سبيل الدعوة الإسلامية ص ١٣٧، ١٩٨٠.

فبرزت شخصية العربي المسلم - ممثلة بثوب طويل، وغطاء للرأس، ونعل قذر دون جوارب - إما راكباً جملاً، أو واقفاً خلف مضخة بنزين (معكوف الأنف، ذا نظرة شزراء خبيثة) إضافة إلى كونه تجسيداً لعدم الكفاية، والسلبية، وللهزيمة الهينة. لقد تمّ بسهولة انتقال العداء الشعبي المجسد بالشخصية اليهودية التقليدية من هدف يهودي إلى آخر عربي مسلم، بسلاسة لم يلحظها أحد، إذ إن تلك الشخصية كانت جوهرياً هي نفسها[١].

مرَّغ الاستشراق الجديد (الصلب القاسي) أنف الثقافة في أوحال السياسة، فكان أحد جوانب العالم الإلكتروني ما بعد الحديث، تعزيز النماذج المنمطة التي يقدم بها الشرق الإسلامي، إذ دفع التلفاز والسينما وكلّ مواد وسائل الإعلام الصورة عن ذلك (الشرق المبهم الغامض) التي سادت في القرنين الماضيين، حدة وتوتراً، أسهم فيها عوامل عدة: منها تاريخ التحيز الشعبي ضدّ العرب والمسلمين الذي ترسخ في اللاوعي الغربي - الأميركي على الخصوص - وزاده ترسخاً الصراع العربي الإسرائيلي، حيث استطاعت وسائل الإعلام التي يسيطر عليها اليهود تجييره لمصلحة إسرائيل، وقلب الكره التقليدي لليهود، إلى حب تعبدي مريض، في حرب إعلامية ونفسية، لم يحدث مثلها في التاريخ[٢].

---

(١) إدوارد سعيد، مصدر سابق، ص ٢٨٦.

(٢) الاستشراق، إدوارد سعيد، مصدر سابق، ص ٢٩٩، بتصرف واختصار.

إلا أن تلك المشاعر السلبية بلغت ذروتها، بعد أحداث الحادي عشر من أيلول (سبتمبر)، منفلتة من كلّ ضوابط العقل، لتصبح حرباً إعلامية سافرة ومستمرة.

وبين استشراقيْ إدوارد سعيد، اللين والصلب، والكره التقليدي الذي نجم عن الحروب الصليبية (أو أنها نُجِّمَتْ عنه) والذي سرعان ما يقفز من الذاكرة ليخرج عن طريق زلة لسان، مروراً بما يحاك ويدبر (من أجل صهيون) وما يخطط وينفذ لتحقيق مآربها، وبين حاجز الإعلام الغربي، والصورة التي رصدها الدكتور (محمد البشاري)[1]؛ حيث قام بمتابعة ما يذكر في أجهزة الإعلام الأميركية والأوربية من التشويه، والتزييف، والتضليل، التي يقدم بها الإسلام، مما شكل ظاهرة (الإسلاموفوبيا) أو الرعب من الإسلام - التي سيطرت على الناس هناك - تم تشويه الحضارة الإسلامية وطمسها والإساءة إليها، الحضارة التي كانت ولا تزال من أعظم الحضارات التي قدمت الخير الكثير للإنسانية جميعاً.

أورد البشاري في ختام كتابه مسرداً عدد فيه بعض الصور المغلوطة التي اختلقوها عن الإسلام كذباً وافتراءً، ودأبوا على ترديدها في إعلامهم، كأنها الحق المطلق الذي لا يأتيه الباطل من

(١) صورة الإسلام في الإعلام الغربي، دمشق، دار الفكر، ٢٠٠٠ م.

بين يديه ولا من خلفه، لترسخ في أعماق الأجيال القادمة، فضلاً عما استقر في لاشعور الأجيال السابقة، فتبقى الكراهية مستمرة جيلاً بعد جيل، ويستثمرها الذين في قلوبهم أمراض، حسب أهوائهم.

فالإسلام دين عنف وإرهاب، إله المسلمين متخلف، ومختلف عن إله العالم المتحضر، وهو دين رجعي، يحتقر المرأة، فيضطهدها، ويسيء معاملتها، والمسلمون هم العرب حصراً، والمسلمون برابرة، همج لا عهد لهم ولا ذمة. أضف إلى أن الإسلام دين متخلف رجعي لا يصلح إلا للصحراء وأهلها من البدو الرحل، ومن المستحيل على أتباعه تقبل الحداثة، ولا بإمكانهم أن يشموا ريحها، ولن يتمكنوا بحال من الأحوال من الدخول إلى ثقافة العصر، لأنهم يعيشون خارج التاريخ. وإن من أهم ذنوبهم التي لا يمكن أن تغتفر أبداً هو معاداتهم للسامية وأهلها، واضطهادهم لليهود في فلسطين[1]!!

---

(١) المرجع السابق، ص ١٥٦ - ١٥٧.

ولوموا أنفسكم

هذا هو واقع الحال ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ٢/ ١٢٠] لسنا دائماً على الحق، ولكن عندنا هدى الله الذي نحجبه بسوء تطبيقنا.

في نهاية كتابه (الاستشراق)، الذي رصد فيه إدوارد سعيد، عمق الكراهية للعرب والمسلمين، ولدين الإسلام، الذي راكمته السنون على المستويين العالمي والشعبي، لم يفعل فعلتنا في إلقاء اللوم على الآخرين، والندب والبكاء على سوء حظنا ومكر أعدائنا، بل أظهر عجبه الشديد، من أن العربي المسلم يجسد نفسه عربياً من النمط الذي تنتجه وتسوِّقه هوليود، فتجده يلومنا على تكريس أنفسنا لتوجهنا الاستهلاكي، الذي أنتج طبقة من المتعلمين الذين وُجِّهَ تشكلهم الفكري نحو إرضاء حاجات السوق؛ فثمة تأكيد على المهندس، والطبيب، ورجل الأعمال المستورِد، دون الالتفات إلى الدراسات الفكرية والاجتماعية، والتخصص فيها لدراسة أمراض مجتمعاتهم ومعالجتها، وقد رُسِم - بحسب قوله - لهذه الطبقة من المتعلمين وخطط لها بوصفها قدوة (محدْثِنة) أي قدوة لمجتمعاتها، فهي تمنح الشرعية

والسلطة المرجعية لأفكار التحديث والتقدم، على الشكل الذي يُرسم لها، لتنقل ثقافة الاستهلاك التي تتلقاها في الولايات المتحدة، بصورة رئيسية؛ فالشرق الحديث برأيه يشارك في (شرقنة) نفسه، بحيث أصبح العالم العربي اليوم كوكباً تابعاً فكرياً وسياسياً وثقافياً للولايات المتحدة الأميركية، كما أنه يعجب بشدة لوجود عشرات المنظمات المخصصة لدراسة الشرق العربي الإسلامي في الولايات المتحدة، بينما لا تقوم مؤسسة واحدة في الشرق العربي الإسلامي لدراسة ما يجري في الولايات المتحدة، وهي الآن تشكل أعظم المؤثرات الاقتصادية والسياسية في المنطقة على الإطلاق.

ثم يختم كتابه القيم بقوله: إن العالم العربي الإسلامي عالق تماماً في صنارة السوق الغربية الأميركية، وعليه تقع مسؤولية تخليص نفسه بنفسه[1]. كأنه يقول: لا تلوموا أحداً ولكن لوموا أنفسكم.

القضية - كما يقول مالك بن نبي - منوطة أولاً بما يستغله الاستعمار - بكافة أشكاله - في أنفسنا من استعداد لخدمته، من حيث شعرنا أم لم نشعر، ما دام يملك سلطة خفية على توجيه الطاقة الاجتماعية عندنا، وتبديدها وتشتيتها على أيدينا، فلا رجاء في استقلال، ولا أمل في حرية، كما قال أحد المصلحين:

(١) الاستشراق، مصدر سابق، ص ٣١٩، ٣٢١، ٣٢٢ بتصرف واختصار.

«أخرجوا المستعمر من أنفسكم يخرج من أرضكم، يسخرنا له، بعلمه، وجهلنا»[١]. بحّ صوت المصلحين، وجفت أقلامهم، منذ أن راود المسلمين حلم النهضة، أوائل القرن الماضي. يكتبون ويحاضرون، ليبينوا للناس أن المجتمع يتكون منهم، وأنه لن يصلُح إلا بصلاحهم.

في جولة متواضعة قمت بها فيما أتيح لي من ثمرات الفكر، وما قيل في وسائل النهضة، وإقالة عثرة الأمة، وجدت كماً هائلاً من الكتب، والأبحاث، والدراسات، التي تبحث في التجديد وقواعده، في الإصلاح وآليته، في التغيير وضرورته، منذ الكواكبي وتحليلاته لطبيعة الاستبداد، ومحمد عبده ودعوته للاجتهاد، وجمال الدين الأفغاني وسعيه الحثيث لبعث الهمة في الأمة وإيقاظها من رقدتها، ورشيد رضا ومناره الذي حاول فيه قراءة الآيات قراءة معاصرة أتت ثورةً في التفسير، ومحمد إقبال ودعوته الملحة إلى تجديد الفكر الديني، مروراً بقاسم أمين وطه حسين وأحمد أمين، وصولاً إلى المصلحين المعاصرين، أمثال مالك بن نبي ومحمد أركون وعابد الجابري وجودت سعيد وكثيرين غيرهم، على ما بين آرائهم من تباين، لكن هماً وحيداً يجمعهم، هو العمل على الإصلاح والنهوض، والخروج من حالة الجمود الميت التي وصلت إليها مجتمعاتنا.

---

(١) مالك بن نبي، شروط النهضة، ص ١٥٥، دمشق، دار الفكر ١٩٧٩.

في هذا المعنى كتب مالك بن نبي سلسلة كتبه (في مشكلات الحضارة) عن شروط النهضة، وميلاد المجتمع، وعن مشكلة الثقافة، عن سنن التغيير، وطرائقه. يقول مثلاً: «إنّ افتقاد الإصلاح الإسلامي لمفهوم البرنامج والمنهاج، أوقعه في تراكم الأشياء المتخالفة في النوع، بينما الحضارة في منهجية بنيتها، ليست كومة من الأشياء، بل هي كلٌّ منسجم من الأشياء والأفكار، بصِلاتها ومنافعها، فالحضارة هي التي تصنع منتجاتها»[1].

وما يدلل على صدق رؤيته، أننا قد استوردنا كلّ منتجات الحضارة، لكننا ما زلنا في بداوتنا الأولى ولم نتحضر!! من كلماته التي كثيراً ما رددها رحمه الله في محاضراته: «إننا نحن واليابان دخلنا على الحضارة الغربية في آن واحد، اليابانيون دخلوها كتلاميذ تعلموها ونقلوها إلى بلادهم بدقة فاقوا بها أساتذتهم، أما نحن في عالمنا العربي الإسلامي فقد دخلنا كزبائن، وما زلنا كذلك، وأعتقد أننا سنبقى كذلك!!».

كتب المفكر جودت سعيد كتاباً استعار عنوانه من الآية الكريمة ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟﴾ باذلاً ما في وسعه وسعة علمه، ليبين لقارئه أن إصلاح ما بالفرد لا بدّ أن يأتي قبل إصلاح ما بالقوم؛

---

(١) العالمية ورسالة الحضارة في فكر مالك بن نبي، عمر مسقاوي، ص ٢٦.

فهذا يحدث نتيجة لذاك، لكن عجزنا المكتسب عبر قرون التخلف، وعدم الفاعلية، ووباء اللاجدوى التي أصابتنا، كلّ ذلك أورثنا سلبية وتواكلاً جعلنا ننتظر أن يغير ربنا سننه الثابتة، فيغير بمعجزة خارقة من عنده ما بقومنا، عسى أن تصيبنا رياح التغيير فيتغير ما بأنفسنا!!.

في نقد مرّ، لقلة جدوانا، يذكر الأستاذ جودت سعيد: «إن من شباب العالم الإسلامي، من يكون عنده الاستعداد لأن يبذل روحه وماله في سبيل الله، دون أن يتردد لحظة واحدة، لكنه غير مستعد لبذل بضع ساعات من يومه ليتعلم كيف يبذل تلك الروح، فلا يهدرها رخيصة بلا ثمن - كما يحصل الآن - وهي أغلى ما يملك!! ولا أين ينفق ماله الذي سوف يكون أوّل ما يسأل عنه؛ من أين اكتسبه وأين أنفقه!! ولا وقتاً كافياً ليبحث مع إخوانه عن حلول لمشاكل جيله وأمراضه»[١].

إن التاجر الناجح، هو الذي يراجع دفاتره كلّ حين، ليرى من أي باب تأتي خسارته ليغلقه، ومن أين يتنسم رياح المكاسب، لييمم وجهه صوبها، لكننا للأسف نقوم بتدوير خسائرنا من عام إلى آخر، ومن جيل إلى جيل، نثقل كواهلهم بأحمال تنوء بها، ولم يتبقَّ لنا إلا إشهار الإفلاس!!

---

(١) جودت سعيد، حتى يغيروا ما بأنفسهم، المدخل ص ١٢ بتصرف.

إلى متى سنستمر في عجزنا وقلة جدوانا؟! نلقي باللائمة على من حولنا، مبتعدين عن الحل الوحيد الممكن والمتاح لنا، وهو البحث عن عيوبنا في محاولة لإصلاحها!!

مهما علا صراخنا، فإن إبليس لن يكف عن إبليسيته ويعلن توبته إرضاء لخاطرنا، فقد أقسم - لعنه الله - أنه سيقعد لنا في صراط ربنا المستقيم، ليحرفنا عنه، وجعل غايته من طلب التأجيل إلى يوم يبعثون إضلالنا، مع أنه سيكون أوّل المتنكرين لنا، والمتبرئين منا، عندما نصل إلى مرحلة النهاية واللاعودة، فقد حذرنا منه ربنا الكريم ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ﴾ [إبراهيم: ١٤/٢٢]. إنها بانوراما مقربة من فوق الزمن، ومن آفاق المستقبل، تنذرنا وتحذرنا من وساوسه وتزييناته، ومسّه وإغوائه.

أما أميركا فلن تترك مصالحها، التي تقوم على إبقائنا على ما نحن فيه؛ لنظل سوقاً مفتوحة لتصريف منتجاتها السلعية وقت السلم، والعسكرية عندما تحرش بيننا، لتستمر معامل أسلحتها في الدوران، كرمى لعيوننا. حتى أعداؤنا فلهم بعض الفضل علينا بانتقادهم المستمر لنا، فإنهم يهدون إلينا عيوبنا، إذا لم تأخذنا العزة بالإثم فقمنا بإصلاحها.

أما آن لنا أن نترك خلافاتنا الإيديولوجية، والمذهبية، والفكرية، التي تناحرنا حولها طويلاً، يتمترس كلّ منا خلف مقتنياته الفكرية، مدافعين عنها على المنابر وفي صفحات الكتب، نسفح المداد في تسطيرها وحفظها، نتنابز من أجلها بالألقاب ونتضارب بالكلمات، وقد يصل الأمر أحياناً إلى إهدار الدماء وسفكها على أعتاب تفرقنا؟!

ما من عاقل يعتقد أن عنده وحده الحل لكل هذا الركام الهائل من المشاكل والمستجدات التي أوقعنا فيها سوء تدبيرنا وجهل تخلفنا، فلا بدّ من وقفة متأنية واعية ليعطي كلّ ذي فكر ما عنده من أفكار، ليقدم رؤاه وتصوراته عن الإصلاح، غير مستبعدين رأياً ولا نظراً للاشتراك في تمحيصها واستخلاص الحلول، ليكون الإصلاح بيدنا، لا بيد عمرو الذي لا يزال يلقي علينا أوامره ونصائحه الإصلاحية، فرب الدار أدرى بما فيها ومن فيها.

كلّ فرد منا يرتعش من الحمى التي أصابت الجسد الإسلامي، فأنهكته، تكاد تقضي عليه، كجسد واحد، لا كأعضاء تعيش وتتناسل، دون ناظم ينظم خطاها، جعل كلّ فرد يغني على ليلاه بطريقته الخاصة، فتخرج النغمات نشازاً تؤذي الأذن والعين.

كلما قرأ مفكر عن مبدأ طبّق في ناحية من العالم ليعالج أمراض مجتمع ما، جرّبه علينا، ليزداد جسدنا مرضاً على أمراضه. نتعاطى حبة من هنا، وشراباً من هناك، قد جربت فينا الأدوية الماركسية الشيوعية، والاشتراكية المادية، ناهيك عن الرأسمالية والقومية، وكلّ أطياف التوجهات الإسلامية؛ من سلفية، أو صوفية، أو معدّلة بينهما. كلما سمع ذو سلطة بدواء، وأتيحت له فرصة تجربته على من دونه، ومن هو خاضع لسلطانه سارع إلى ذلك، فمن كان صاحب سلطة جرّبه على شعبه، ومن كان صاحب مريدين وأتباع جرّبه على أتباعه، حتى أمسينا فئران تجارب أيديولوجية، وأُصبنا بتخمة وتسمم دوائي، فشكل ذلك عند طائفة منا خوفاً مرضياً من الدواء، فانطوى على أوجاعه، من مبدأ أنه ليس بالإمكان أبدع مما كان، وأنه لا يكشف الغم إلا من أنزله. وكانت طوائف أخرى تقف متفرجة على ما يدور، كأن الأمر لا يعنيها.

تضخمت جراثيمنا الفكرية حتى اكتسبت مناعة، فاستعصت على العلاج، وشلت حركتنا، إن الوضع المأساوي الذي تردت إليه حالنا، لم يعد يحتمل تجاربَ ولا تناحراً واختلافاً، ولا إعجاب كلِّ ذي رأي برأيه، أصبحنا بحاجة إلى غسل عاجل لعقولنا، لنزيل منها الأفكار الميتة والقاتلة التي أثقلت كاهل حياتنا، في عملية تنقية وتنحية، تطال كل ما استقر فيها،

وعشش مبتنياً بيوتاً، ربما هي أوهى من بيوت العنكبوت في مضمونها.

اجتاح الوباء المجتمع، فهو لا يفرق بين صالح أو طالح، بل يصيبهم جميعاً الصالح منهم والطالح، «قالوا: يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون؟! قال: نعم إذا كثر الخبث»[١].

كلما أصاب المسلمين اليأس من المأزق الحضاري الذي تردت فيه مجتمعاتهم، وأشفقوا من سوء منقلب حاضرهم، عمدوا إلى ماضيهم المجيد يفتخرون به، فكان حالنا أشبه بحال ذلك الوالد الغني، الذي خلف لذريته جنات من نخيل وأعناب، فأصابتها أعاصير الاختلاف والاقتتال على المناصب، فاحترقت بسبب سوء تدبيرهم، وسفه تعاملهم، فما انتفعوا منها بشيء، لكنهم على رثاثة حالهم، ما زالوا يفتخرون بنسبهم العريق. ما من عائلة عربية، إلا وتحاول أن تنبش في تاريخ أنسابها، لتجد لها شجرة نسب تصلها إلى النبي ﷺ، أو إلى أحد أصحابه أو التابعين، لتعلقها على جدار بيتها الخرب تحفة تفاخر بها من لا يملك شجرة نسب!! لكن تلك التحفة لن تغني عن صاحبها من الله شيئاً في الدنيا ولا في الآخرة، فقد حسم نبينا الكريم الأمر

(١) عن أم المؤمنين زينب بنت جحش قالت: قلت يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «نعم إذا كثر الخبث» ١٩٤، رياض الصالحين للنووي، متفق عليه.

عندما طلب من ابنته الحبيبة فاطمة أن تعمل لآخرتها، فإن انتسابها إليه لن يغني عنها من الله شيئاً[١].

يذكر مالك بن نبي أن المسلم المعاصر عندما يواجَه بنقائصه وعيوبه، يعمد - تعويضاً عن قصوره - إلى مدح حضارته وتراثه، وما فعله آباؤه، مندفعاً بنوع من الشعور بالتعالي المعطل، حينما يواجَه بتعالي الحضارة الغربية وغرورها.

ترتدي قيادته الفكرية بزة السلبية، فهي تتحدث عن عالمية الإسلام لتعفي نفسها من حضورها العالمي، فهو يرى أن العصر الحديث قد مزّق وعي الإنسان المسلم في عالم زمني هو مرغم على حضوره والحياة فيه، وإن كان لم يتمثل معاييره، لذا تراه قد استرسل في تطور إعوازي في حجم الأشياء، دون حجم الأفكار، مما شطر حياته النفسية إلى عالمين منفصلين، فمسلم اليوم يعيش في عالم غريب عنه، له منه أشياؤه، وليس له منه أفكاره، ومع ذلك فهو مرغم على تمثل أفكاره حسنها ورديئها، ولكي يستوعب وعيه ذلك الضغط الهائل للأفكار التي تهدد شخصيته وكيانه، يعمد إلى استفتاء علمائه وفقهائه حول الحلال والحرام، ليزيد ذلك في تفسخ وحدته النفسية، حين لا يطابق

---

(١) «يا فاطمة بنت محمد سليني ما شئت من مالي، لا أغني عنك من الله شيئاً» جزء من حديث طويل في البخاري ٦/ ١٤٠.

فقه الأوراق ثقل الواقع، نظراً لغياب المجتمع الإسلامي عن الإسهام في الحاضر[١].

إنّ مسلم اليوم الحزين، ينسى يومه الذي لا يملك غيره بين ماضٍ مجيد يعتز ويفتخر به، ومستقبل مشرق يأمل ويحلُم به. أحد القادة العرب المعاصرين قال في معرض افتخاره بنسبه: «نحن يرجع نسبنا إلى البطن الفلاني من قبيلة بني فلان، فإلى من ينتسب السيد بوش؟!!».

بعيداً عما يكيده لنا الأعداء، أو ما يتربصونه بنا من خير أو شر، هل نحن بخير؟ وإذا كنا كذلك، فلماذا أصبحنا هدفاً لتندر القاصي والداني؟!

أما نحن فقد دأبنا على جلد ذواتنا، حتى لم يبقَ لنا ذات!!

هلا وقفنا وقفة صدق، نستريح من تلوث ضجيجنا الفارغ، الذي نثيره من بين أيدينا ومن خلفنا، وأينما اتجهنا، حتى كاد يصيبنا بالصمم، يشل حركتنا، ويقتل أوقاتنا؟! يقول مالك بن نبي عن الزمن والوقت في حياة الشعوب: الزمن نهر قديم يعبر العالم منذ الأزل، فهو يمر خلال المدن، يغذي نشاطها بطاقته الأبدية، أو يذلل نومها بأنشودة الساعات الذاهبة هباء، إنه

(١) العالمية ورسالة الحضارة في فكر مالك بن نبي، مصدر سابق، ص ٣٣ - ٣٤ بتصرف.

يتدفق على السواء في أرض كل شعب ومجال كل فرد بفيض من الساعات اليومية التي لا تغيض، لكنه يصير في مجال ما (ثروة)، وفي مجال آخر يتحول (عدماً)، فهو يمرق خلال الحياة، ويصب في التاريخ تلك القيم التي منحها له ما أنجز فيه من أعمال.

إنه نهر صامت، حتى إننا ننساه أحياناً، وتنسى الحضارات في ساعات الغفلة أو النشوة قيمته التي لا تعوض... إنه من الصعب أن يسمع شعب ثرثارٌ الصوت الصامت لخطا الوقت الهارب[1].

(١) شروط النهضة، مالك بن نبي، ص ١٣٩-١٤٠، بتصرف واختصار، طبعة دار الفكر ١٩٧٩.

آلية التغيير

لا يستطيع أحد مهما بلغت درجة تفاؤله، أن ينكر أننا نعيش في أزمة وفي مأزق حضاري، وفي هوّة تاريخية عميقة تردَّينا إليها، لن يخرجنا منها، لا هروبنا إلى مزيد من التقوى والإيمان، ولا الانتظار حتى ترق لنا قلوب الآخرين القاسية. خلل في منهجية التفكير والممارسة صاحبت ما يسمى بالصحوة الإسلامية، أو محاولات إيقاظ الأمة من غفوتها، كان الخلل كبيراً في منهاج الدعوة والدعاة، وهو خلل غير مقصود طبعاً - وإظهاره ليس انتقاداً وإنما اعتراف بواقع - وذلك بتركيزهم على الناحية العبادية من الإيمان، دون الالتفات إلى الجانب العملي، هذا الخلل لم تظهر نتائجه إلا بعد مرور ما يقرب من نصف قرن أو يزيد. تناولوا الناحية الأسهل في مخاطبة الناس، وهي لا تكلف إلا بضع آيات تشرح، يصاحبها مؤثرات خطابية وعظية تستدر الدمع فتخشع لها القلوب. كلّ ذلك جميل ونافع ولا غبار عليه، وسط زحام المادة الذي يثقل حياة البشر، مغيباً إيمانهم الفطري بقوارضه البشعة. لكن الإخلاص وحده لا ينفع، ورقة القلب لا تكفي مع دمعة العين، فذلك جناح واحد من أجنحة

الاستخلاف، إذا لم يردف ويقترن بتوءمه من الصواب والعمل الصالح، فأنى لهذا الطائر المهيض الجناح أن يقلع ويطير؟! قرنت الآيات الإيمان بالعمل الصالح، في أكثر من خمسين مرة في الخطاب القرآني، في تمازج بينه وبين العمل، إنها ثنائية العبودية والاستخلاف، واستحقاقات التوحيد.

أدى هذا التركيز على الجانب الهين من الإيمان، إلى خلل في نفسية المؤمن، جعلته يكثر من العبادات لتغطي سوء تأديته في المعاملات، وكسله وتواكله في إعمار الحياة.

يروى أن أحد المتصوفين كان يجوب البرية موحداً ومتفكراً في آلاء ربه، فأثار انتباهه طائر أعمى يسكن في إحدى المغارات، فجلس يراقبه لينظر ما شأنه، وهاله أن طائراً مبصراً كان يأتي بالطعام إلى ذلك الأعمى، فيطعمه ثم ينصرف، قال في نفسه: يا سبحان الله في قدرته، إذ هيأ لهذا الطير الأعمى آخر مبصراً يأتيه بالرزق، فجلس في مغارة مجاورة يذكر ربه ويؤدي صلواته منتظراً أن يسوق إليه ربُّه رزقَه كما فعل بالطائر الأعمى، وعندما افتقده أحد رفاقه، خرج يبحث عنه في البرية، فوجده ساكناً قابعاً في مغارته، لا يبدي حراكاً، ولما استوضحه عن شأنه، روى له حادثة الطائرين الأعمى والمبصر، فأجابه صاحبه: ويحك لماذا اخترت أن تمثل دور الطائر الأعمى، ولا تكون ذلك المبصر،

فتأكل من عملك وتطعم ذا الحاجة، وأنت قوي صحيح لا تشكو علة؟!

هذا الخطأ الكبير الذي مارسه الدعاة - عن حسن نية، وليس عن سوء قصد - أدى بالأمة إلى أن تكون كلاً على غيرها، ذليلة لمن يملك قوت يومها؛ يطعمها إن رضي، ويمنع عنها خبزها وعيش كفافها إذا سخط.

تذكر الأخبار أن الاتحاد السوفييتي الذي كان عملاقاً في قوة السلاح، أذلته أميركا وأودت به إلى الانهيار، بحبة القمح التي منعتها عنه.

إنها معادلة الإيمان والعمل الصالح، التي لا تستقيم الحياة إلا بها، افتقدناها في عالمنا، وغابت عن دنيانا، كما يذكر الدكتور ماجد عرسان الكيلاني في كتابه (فلسفة التربية الإسلامية) إذ يقول: لا بدّ من تكامل المظهر الديني، والمظهر الاجتماعي، والمظهر الكوني، فهي مظاهر العبادة، التي يؤدي الفصل بينها إلى تعطيل فاعلية كل منها، ويحيله إلى مجرد حركات، وممارسات خاوية لا روح فيها ولا نشاط ولا حيوية. والمجتمع الذي يسمح بالفصل بين مظاهر العبادة الثلاثة يبدأ بالانحطاط، ثم يسير نحو الانهيار؛ وذلك لأسباب:

١ - السبب الأول: أن حصر مفهوم العبادة في (المظهر

الديني) يقود إلى الغفلة عن (المظهر الاجتماعي) وعن (المظهر الكوني)، فيتعطل البحث فيهما، وتخسر العلوم الاجتماعية والكونية، أو تنحرف عن مسارها الصحيح، فينعكس هذا التنافر على المؤسسات التي تمثل الميادين الثلاثة، فتعمل كلّ ضدّ الأخرى، وبذلك ينتهي أمر المجتمع إلى التفكك والانهيار.

٢ - السبب الثاني: أن حصر مفهوم العبادة في (المظهر الديني) والفصل بينه وبين المظهر الاجتماعي يؤدي إلى ظهور فريقين من المتعلمين، فريق من المتدينين، يتصف بالسلبية والمسكنة، وفريق من الاجتماعيين يتصف بالانفلات وانعدام موجهات السلوك.

كما أن الفصل بين (المظهر الديني) و(المظهر الكوني) يؤدي إلى ظهور نماذج من المتدينين تتصف بالتواكل والكسل والسلبية، والجبرية، ونماذج من المهنيين تتصف بالمادية الاستهلاكية المفتقرة إلى موجهات السلوك السليم.

وهذا ما حصل في العصور الإسلامية المتأخرة، حين تفتتت مظاهر العبادة، فضاع مفهوم المعرفة، وحُصرت مؤسسات التربية والتعليم في المظهر الديني فقط، فشاعت المشيخة والدروشة المحترفة، وشاع العجز والسلبية إزاء الكوارث الداخلية أو التحديات الخارجية. يقابل ذلك شيوع السلبيات الاجتماعية والأمراض الأخلاقية.

٣ - السبب الثالث: أن حصر مفهوم العبادة في (المظهر الديني) يحرم المشتغلين في ميادين (الاجتماع والكون) من التوجيه والإرشاد، فيشيع في حياتهم التمرد على القيم والأخلاق، ويشيع الصراع الاجتماعي بين الطبقات، وهذا ما ضرب المجتمعات الإسلامية في العصور المتأخرة، وأدى إلى الفتن وأسباب الانقسام.

وحين تنبهت المجتمعات الإسلامية الحديثة لآثار الضعف، لم تبدأ في عملية المراجعة والتقويم في ميدان التربية، وإنما لجأت إلى التقليد؛ تقليد عصور الجمود من القديم، وتقليد عصور الانشقاق بين العلم والدين من الجديد، فتعزز هذا الحصر والتضييق لمفهوم العبادة، ونشأت ثنائية في التعليم، إذ تخصص مقلدو القديم بالعلوم الدينية التي تحصر العبادة في (المظهر الديني)، وتخصص مقلدو الجديد بالعلوم الكونية والاجتماعية منفصلة عن العلوم الدينية، ونتج عن ذلك ثنائية متنافرة في الأجيال الحديثة للمجتمعات الإسلامية، وتدنى مستوى الشخصية الإسلامية عما كانت عليه في مطلع الرسالة.

٤ - السبب الرابع: أن حصر مفهوم العبادة في (المظهر الديني) والفصل بينه وبين (المظهر الاجتماعي) يعطل رسالة الدين في الإصلاح الاجتماعي، ويكبله عن محاربة الشر، بل يحيله إلى عامل دعم للشرور اليومية الجارية، وهذا ما جعل

المترفين في كلّ جيل ينادون بفصل الدين عن الحياة، وهو السبب الذي جعل الجماهير المظلومة تنضوي تحت لواء المتنكرين للدين.

إن فلسفة التربية الإسلامية تقوم على وجوب التحام الشعائر التعبدية بالمظهر الاجتماعي والكوني للعبادة، فلا يكفي أن يكون المسلم صالحاً، بل لا بدّ أن يكون مصلحاً أيضاً، وهذا ما يشير إليه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ ۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾ [البقرة: ٢/١٧٧](١).

ألمت الآية الكريمة بجوانب الحياة كلها، لتقرّر أن المتقي هو الذي يجمع كلّ أطرافها ومظاهرها، إذ إن الإسلام اعتبر الفصل بين المظهرين الديني والاجتماعي نوعاً من التكذيب بالدين نفسه، لأن المظهر الاجتماعي، أي التقوى الاجتماعية التي تجاهلها المسلمون في غمرة تلذذهم بممارسة التقوى الفردية، هي

(١) فلسفة التربية الإسلامية، سلسلة أصول التربية الإسلامية، ١، الدكتور ماجد عرسان الكيلاني، مكتبة هارون، مكة المكرمة، الطبعة الثانية، ١٩٨٨، ص ٨٧-٨٩ بتصرف.

محك الصدق في الإيمان «والله لا يؤمن من بات شبعان وجاره جائع وهو يعلم» أعادها النبي ﷺ ثلاثاً لتقرير أهميتها.

هذا الفصل بين مظاهر العبادة أدى إلى إماتة الضمير، وقتل النفس اللوامة؛ إذ أصبح المسلم يغش في تجارته، ويأكل حقوق الناس، يكذب ويخلف في وعده، يقطع رحمه ويظلم جاره، ثم يقف خاشعاً في مسجده في الصف الأول خلف الإمام، كأن هذا لا علاقة له بذلك، ثم يذهب إلى الحج كلّ عام ليغسل أوزار العام كله بالجملة!!

إنّ هذا التأثر، مع ارتفاع توتر الإيمان العالي، لا يتجاوز منطقة الشعور والعاطفة ليترجم إلى عمل. أليست عجيبة هذه الحالة الإيمانية التي يعيشها مسلم اليوم؟! زيادة كبيرة في الإيمان النظري، ونقص كارثي وإعوازي في الجانب العملي. . . نفصل بشدة شطري العبودية (آمنوا وعملوا الصالحات) فنكتفي بالذين آمنوا، ونغض الطرف عن (عملوا الصالحات).

بين النظرية والتطبيق

زار أحد الأجانب، بعض الدول العربية، ليطّلع على الإسلام في أرضه، فكان أوّل ما لفت انتباهه لوحة مزخرفة علقها سائق التاكسي الذي أقله من المطار، فيها كتابة بأحرف عربية جميلة، وعندما سأل السائق عن معناها، أخبره أنها تقول: «إن النظافة من الإيمان». فقال في نفسه: إنه لدين عظيم ذلك الذي يبين للناس أمور حياتهم، ويهتم بالنظافة المادية الخارجية، كما يهتم بنظافة الداخل المعنوية، وما دامت النظافة عندهم داخلة في صلب الإيمان والاعتقاد - ليس بسلطة القانون كما في بلادنا - فلا بدّ أني سأدخل إلى مدينة قمة في النظافة والترتيب، لكنه عندما وصل إلى قلب العاصمة العربية المشهورة هاله ما وجد فيها من أوساخ ملقاة في شوارعها الرئيسية قبل الفرعية!! وعندما دخل إلى أحد المساجد الكبيرة الأنيقة متابعاً جولته بعين الناقد التي تتسقط العيوب - إذ إن الإلْف والعادة جعلنا لا ننتبه لها - دخل إلى أماكن الوضوء في المسجد الفاخر ليرى في الحمامات والموضأ العجب العجاب من فوضى القذارة والإهمال، فقال: الآن عرفت سرّ تأخر المسلمين على الرغم

من كلّ القيم الرائعة التي يعتقدونها، إنهم يفرقون بين الفكر والعمل، بين النظرية والتطبيق، بين ما يرددون من شعارات وما يمارسونه!!

لم يعد من الممكن أن يقال إن المجتمع الإسلامي يعيش طبقاً لمبادئ القرآن، بل من الأصوب أن يقال إنه يتكلم تبعاً لمبادئ القرآن(١). مهما دافعنا عن إسلامنا، وتحدثنا عن سموه، وما يدعو إليه من مكارم الأخلاق، فلن يعبأ أحد بكلامنا؛ إذا لم تنعكس تعاليمه على تصرفات أهله في واقع الحياة، فالمسلمون للأسف بقدر ما يعظمون دينهم ويفتخرون به وبتعاليمه، بقدر ما يسيئون إليه من خلال الانفصال الكبير بين ما يعتقده المسلم ويعتز به، وبين ما يمارسه عملياً في حياته، وبقدر ما يعظم المسلمون آيات الله في كتابه بقدر ما يعصون أوامره، وبقدر ما يحبون رسوله ويبجلونه بقدر ما يخالفون سنته!! إن إسلامنا بخير، لكنّ المسلمين يقدمون أسوأ المثل عن الإسلام، في تعاملهم فيما بينهم، أو مع الآخرين. نسي المسلمون في غمرة انشغالهم بحب رسولهم، والإعجاب بسيرته، أنه هو الذي بُعث ليتمم مكارم الأخلاق، فتركوا الأخلاق.

---

(١) مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ص ٨٧، الطبعة الرابعة ١٩٨٤، إصدار دار الفكر.

إن الإسلام لا يحتاج إلى أبواق دعاية لتبييض صفحته كما تفعل أميركا الآن فيما تنفقه في سبيل تبييض وجهها الأسود في العالم العربي، عن طريق إنشاء فضائيات خاصة تسبّح بحمدها، وتعدّد حسناتها، فهو لم يحتج في انتشاره إلى دعاة أو مبشرين، بل انتشر بالأسوة الحسنة، بخلق المسلم ومعاملته. وعلى الرغم من كل ما يحشده المبشرون من أدوات ويبذلونه من جهود لتنصير المسلمين في الدول الفقيرة، وتقديم المغريات المادية لهم لإخراجهم من دينهم، وبالرغم من انهزام المسلمين المادي والمعنوي هذه الأيام، فإن الإسلام ينتشر في الدول المتقدمة بقوته الذاتية، وليس بفضل المسلمين، لأن الإسلام نور خارق، إذا خالط الفطرة السليمة فإنها تتقبله دون تردد. فالخوف ليس على الإسلام، إنما أكبر الخوف علينا نحن المسلمين، إذا استمررنا في إنكار عيوبنا باستكبارنا الفارغ، ولم نرجع إلى أخلاقنا وتعاليم ديننا؛ أن يستبدل الله قوماً غيرنا، ثم لا يكونوا أمثالنا.

لقد تخرب بيتنا الداخلي بأيدينا، وأيدي أعدائنا، وإصلاحه ومداواة أمراضه التي حفرت عميقاً في أغوارنا، حتى أصبحت تسيرنا من حيث لا ندري هو، من شأننا، وليس في مصلحتهم، لا بدّ أن قائمة الإصلاحات كبيرة، لكن يبقى أساس البنيان متيناً والحمد لله. إن تراكم ران التخلف، وطول الأمد مع شدة الإهمال، جعله بحاجة إلى إعادة ترتيب، ووضع أولويات لإزالة

أنقاض السنين. إن إعادة التنظيم وتشييد البناء يستلزم الكشف عن الخارطة الأصلية، لاستلهام الشروط نفسها؛ التي أنشأت المجتمع الأول المجتمع المثالي الذي يقتدى به؛ «لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح عليه أولها»[١].

لنستبعد من حياتنا التصرفات المؤذية، لا بدّ من تنظيف عقولنا من الأفكار الخاطئة، كما يقوم الناس بتنظيف بيوتهم بين حين وآخر، في إعادة لترتيبها، والتخلص من (الكراكيب) التالفة والزائدة، وإن (كراكيبنا) الفكرية، لم تعد تخفى مهما قمنا بالتزيينات الخارجية، والمظاهر الإيمانية لتجميلها أو إخفائها!!

كلما تعالت أصوات المصلحين، داعية ومنادية إلى كشف العيوب للبدء في إصلاحها، ارتفعت صيحات الذين لا يعملون، ولا يتركون لغيرهم مجالاً للعمل والحركة، بحجة أن العدوَّ يدق أبوابنا، متربصاً بنا دوائره الخبيثة، ومن غير المناسب أن ننشر مشاكلنا الوسخة على مرآه ومسمعه، حتى لا يشمت بنا، لكن غسيلنا ازداد وساخة حتى تعفن وفاحت روائحه نتنة تملأ آفاقنا. نحن نخدم أعدائنا من حيث لا ندري، إذ نسيء إلى أنفسنا أكثر مما يريدون لنا.

---

(١) مقولة اشتهرت عن الإمام مالك، قالها معقباً على الانقلاب الأموي، وما جاء به من مستجدات، عن أبعاد غائية عن الفكر الإسلامي، الفكر الإسلامي المعاصر، ص ١٢٤، تحرير عبد الجبار الرفاعي.

نضحك على أنفسنا منذ أكثر من نصف قرن بالتسويف والمماطلة، زعماً منا أنه لا يجوز، ولا يمكن لنا أن نبدأ بمراجعة لعيوبنا، قبل أن نحل مشكلة فلسطين!! لكن تلك العيوب تراكمت حتى غدت آصاراً تكبلنا، وتمنعنا من إزالتها أو إصلاحها، واتّسع فتقها على الراتق!! تضخمت مشكلة فلسطين، فصارت مشاكل، وتوسعت رقعة أرضنا المغتصبة فأضحت دولاً وشعوباً مغتصبة ومسلوبة الإرادة، وليس في مقدورنا بعد كلّ تلك المصائب التهرب من آفاتنا أو نكرانها!!

أمرنا ليس سهلاً، ومشكلتنا استعصت على الحل، بعد أن أصبحنا هدفاً هيناً لتندُّر القاصي والداني وتعليقه، تُلصق بنا كلّ فرية سوء، فنصدقها قبل قائلها!! وُضِع جسدنا الإسلامي الذي أنهكته الأمراض وأثخنته الجراح، على مشرحة العالم، وتداعى الأطباء لإجراء تجاربهم عليه، كما يفعلون بجثث الموتى، وتداعت أمم الأرض إلى قصعتنا المستباحة تغمس فيها لقمها، لتذوق ما ذاقه غيرها - وليس في هذا أحد أحسن من أحد - بعد أن غدونا في تفرق أمرنا وضعف حالنا وانعدام حيلتنا، كأننا لقطاء وجدنا على قارعة البشرية، لا أب لنا ولا أم، لا تاريخ ولا جغرافيا!!

مشكلتنا لا تحل بكتب تكتب، ولا بمواعظ تلقى من على المنابر، إنها بحاجة إلى دراسات جادة، يتفرغ لها أهل الاختصاص والخبرة، لمعرفة كيف نشأت، وكيف يمكن

معالجتها في العمق؛ لأن المسكنات التي نتناولها فقدت صلاحيتها، وأدت إلى تفاقم المرض.

يقول الدكتور طه جابر العلواني: كانت هناك محاولات كبيرة لتحطيم إرادة المسلم وإنسانيته التي عمل الرسول ﷺ على بنائها، وإبدالها بهوية مشوهة فيها مزج عجيب بين القبلية والعنصرية، وبين تعاليم الإسلام؛ ففي تلك المرحلة التي بدأ فيها خط الانحراف، شاعت كثير من البذور الفكرية المدمرة، التي كان لها فيما بعد آثار خطيرة في تكوين النفسية والعقلية المسلمة، فقد شاعت بعض المظالم، وانتشرت أفكار الجبر، وتحول المسلمون الذين كانوا يحاجون رسول الله عليه الصلاة والسلام، والوحي يتنزل عليه، في بعض الأمور، إلى السكوت والمتابعة على مضض، على الرغم من تفشي كثير من المخالفات، حيث صارت تعاليم الإسلام تؤول لتفسح المجال أمام عقليات الجبر، والتقليد الأعمى، بعد أن أدخلت الجبرية قسراً لا في جانب الفكر وحده، بل ربما في بعض جوانب العقيدة أيضاً، فأُشيع بين الناس كثير من الأدعية المأثورة، والكلمات المشتهرة، والأمثلة السائرة، لتحدث آثارها المدمرة بعد نزعها من سياقها في العقلية والنفسية المسلمة.

إن الواقع العربي الراهن، كما يراه الدكتور العلواني، واقع مأساوي، والحقائق التي تحيط به لا تسمح بإزالة دواعي اليأس،

وعوامل الإحباط من طريق النفس والعقل، والأمة القطب التي تكونت وتشكلت بنور القرآن المعجز الخالد، تعيش أزمة حقيقية، لم يعد جانبها البراني إلا أخف جوانبها، أما الجانب الجواني فهو قاتم مظلم، يحتاج إلى حفر ذهني بعيد الغور في تجاويف الدماغ العربي، وداخل العقل العربي المسلم، والنفس العربية المسلمة، ليصل إلى أعماق الأزمة فيحيط بها، لعله يتمكن بعد ذلك من تبين معالم الخروج منها، أو تجاوزها[١].

ويضيف الدكتور العلواني قائلاً: قبل أن تدفعنا عملية التقليد إلى البحث عن الحل الجاهز، كما فعلت في السابق، أؤكد بأننا جميعاً مهما كانت انتماءاتنا الفكرية، أو العشائرية أو المذهبية - أو الأيديولوجية - الإقليمية أو القومية، مطالبون برفع درجة التوتر والقلق في نفوسنا إلى مستوى يسمح بمراجعات مخلصة وجادة لمحاولاتنا وآرائنا وأفكارنا، وإعادة طرح السؤال العنيد: أين الخلل، وما الحل؟ من جديد؛ لأن الواقع أثبت أن لا أحد قدّم الحل، وأن لا أحد قد أحاط بالحقيقة.

إن تلك المراجعات من أكثر الأمور المساعدة فاعليةً في تبين معالم المشهد الذي نعيش فيه، ورسم أبعاده، للانتقال إلى الفقرة

(١) أبعاد غائبة عن الفكر الإسلامي المعاصر، حوار مع طه جابر العلواني، ص ١٢٤ - ١٢٥ بتصرف. تحرير وحوار عبد الجبار الرفاعي، طبعة دار الفكر ٢٠٠٠

الثانية من السؤال، وهي المتعلقة بمدى استطاعة المفكر المعاصر، تجاوز أسئلة القرن الماضي وسجالاته، وأنه أجاب عليها، ودخل في مرحلة إبداع وتأسيس أم لا[(١)]؟

ويذكر أيضاً، أن وضوح الرؤية للأزمة عند الكواكبي عندما عالجها في (أم القرى) بلغ مستوى جعله قادراً على التمييز بين الكلي من عناصر الأزمة، ثم يصنفها إلى الفرعي والجزئي، أو الأصلي، بشكل لا نراه واضحاً ولا وارداً لدى المعاصرين، من الذين ملؤوا الدنيا حديثاً عن الأزمة والمأزومين.

كذلك فإن رصده للأزمة لم يرتكز على النخبة كما فعل من جاء بعده، بل أشرك الأمة كلها، وجعل لها بكل فصائلها أدواراً مهمة في فهم الأزمة، والعمل على حلّها، بحيث يمكن في إطار تصوره للأمة أن تستنفر كلها؛ بكل طاقاتها وفصائلها لفهم الأزمة والتعاون على حلّها ومعالجتها، وهذه إحدى المعالم الهامة التي يمكن ملاحظتها بسرعة في طرح الكواكبي وأبناء جيله لسؤال النهضة وإشكالية الأزمة، مما يوضح لنا التقهقر الذي شهدناه بعد ذلك، لا على مستوى حلّ المشكلات والجواب عليها فقط، بل على مستوى فهم الأزمة وصياغة السؤال[(٢)].

---

(١) طه جابر العلواني، مصدر سابق، ص ١٤٦.

(٢) عن الفكر الإسلامي المعاصر، مصدر سابق، ص ١٥٨ - ١٩٥ بتصرف واختصار.

وفي فقرة هامة نقلها الدكتور العلواني من مقالة (الشرق والشرقيون) لجمال الدين الأفغاني في جريدة (أبو نظارة زرقاء) التي كانت تصدر في باريس عام ١٨٨٣، يتحدث فيها عن أسباب ارتقاء الحضارات، وعن عوامل تدهورها، ليرجع كلّ مظاهر الجمود والتدهور والانحراف، إلى سبب رئيسي هو انهيار الشخصية. وقوام الشخصية عقل ونفس، العقلية تبنيها العلوم والمعارف، والخبرات، والتجارب، والرؤية الكلية مع وضوح الأهداف والغايات والمقاصد، ومناهج توخيها وتحقيقها.

أما النفسية فقوامها الفنون الشريفة، والآداب العالية، التي تجعل من الإنسان إنساناً سوياً يشعر بمزاياه وإنسانيته، وكرامة نوعه وجنسه، فإذا انهارت مقومات الشخصية العقلية والنفسية، انهارت الشخصية، ودمرت. وانهيار الشخصية ينعكس على جوانب الحياة كلها بسلبياته ومشاكله.

ولقد ضرب السيد الأفغاني في مقالته أمثلة كثيرة تهز القلوب وتحرّك المشاعر، كما ساق نماذج مختلفة بشكل تحريضي ليدفع الناس دفعاً ويسوقهم بشدة إلى إعادة بناء (العقلية والنفسية) الجيدة، ليتم بعد ذلك تركيب الشخصية المفككة من جديد، فيعاد بناء الحياة والنظم، وإرساء دعائم الاجتماع والتمدن.

ومن الغريب، كما يذكر العلواني في تعليقه على المقالة، أننا على رغم تجاوزنا تاريخ هذه المقالة بأكثر من مئة وعشرين عاماً،

فإننا إذا رفعنا أسماء الحكومات والحاكمين التي وردت فيها، ووضعنا عناوين معاصرة، لظن قارئ المقالة أنها كتبت وأعدت هذه الأيام، لا قبل مئة سنة ونيف[1]!!

ويدلي عابد الجابري بدلوه، في نقد الحاضر، واللحظة العربية الراهنة، فيتساءل: ما الذي يفقد الذات العربية استقلالها التاريخي التام، ويبلغ شخصيتها سن الرشد المطلوب لنهضتها؟ إنهما النموذجان اللذان يتجاذبان تلك الذات منذ بدء يقظتها الحديثة؛ النموذج العربي الإسلامي السابق، والنموذج الأوربي الحديث. والسبيل إلى تحقيق الاستقلال التاريخي لتلك الذات، هو التحرر من السلطتين معاً.

الخطاب العربي المعاصر يجعل من غياب الآخر شرطاً للنهضة، لكن غياب الآخر يعني غياب سلطته الحاكمة علينا وليس إلغاءه، فالتحرر من الغرب لا يعني سقوطه وأفوله، بل التعامل مع ثقافته نقدياً، وذلك بقراءتها في تاريخيتها، وفهم مقولاتها، للتعرف على أسس تقدم ذلك الغرب، والعمل على غرسها أو ما يماثلها داخل ثقافتنا وفكرنا.

ينتقد الجابري استعمال كثير من الكتاب المعاصرين عبارة «امتلاك ناصية العلم» - كشرط للنهضة - بينما يفضل وضع جملة «أرجل العلم» مكان الناصية؛ لأن ما نحن فيه ليس بحاجة

---

(١) عن الفكر الإسلامي المعاصر، مصدر سابق، ص ١٦٧ بتصرف واختصار.

إلى (إذلال العلم) ولا (تسخيره) بالمعنى المفهوم (للسخرة) لا للتسخير، بل ما نحن بحاجة فعلية إليه هو (تلك الأرجل) التي يمشي بها العالم، إنها العقلية النقدية المنهجية. كذلك ينتقد الذين يرون في التحرر من التراث شرطاً للنهضة، لكن تحررنا منه، كما يرى الجابري لا يعني تجاوزه، أو إلقاءه في سلة المهملات، أو وضعه في المتاحف، لأن ذلك غير ممكن ولا معقول، بل بمعنى امتلاكه وفهم مقاصده، ومن ثم تحقيقه وتجاوزه، وهذا لا يتم إلا بإعادة بنائه، وترتيب العلاقة بين أجزائه من جهة، وبينه وبيننا من جهة أخرى، فلا يمكن لأحد أن يجادل أو يماري في أن الماضي، يشكل في الوعي العربي المعاصر عنصراً محورياً، من السذاجة بمكان إغفاله أو القفز من فوقه.

لا يمكن لنا أن نحل مشاكل المستقبل، إلا إذا حلت مشاكل الماضي، وذلك بالبدء في رفع الضباب عن رؤية الماضي، كي تتضح رؤية المستقبل. لا يمكننا أن نظل مستمرين في نفي الذات والتماهي في الآخر، لا بدّ من حضور (الأنا) حضوراً واعياً، كذات لها تاريخ، لسنا مركزاً للتاريخ، ولكن كان لنا حضور تاريخي فاعلٌ، علينا استحضاره[1]. [التاريخ ذاكرة الشعوب وويل للأمة التي تفقد ذاكرتها].

---

(١) الخطاب العربي المعاصر، عابد الجابري، دراسة تحليلية نقدية، ص ١٨٩ بتصرف، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الثالثة ١٩٨٨.

كذلك فإنه يرى أن موضوع نقد العقل العربي، المتداول على ساحاتنا الفكرية في السنوات الأخيرة، بعد شعور المفكرين الذين يتناولون موضوع التحديث بأهميته، كان يجب أن ينطلق منذ مئة عام، لأنه جزء أساسي وأولي من كل مشروع للنهضة، لكن نهضتنا جرت فيها الأمور على غير هذا المجرى، ولعلّ ذلك كان من أهم عوامل تعثرها المستمر حتى الآن، لأنه من غير الممكن بناء نهضة بعقل غير ناهض، عقل لم يقم بمراجعة لآلياته وتصوراته ورؤاه(١).

يضيف: إن السلطات الثلاث التي أسست الفكر العربي في الفترة التي أسماها عصر التدوين وهي البيان والعرفان والبرهان، لا تزال تؤسس التفكير وتوجهه داخل الثقافة العربية الإسلامية، وهي التي تشكل البنية اللاشعورية لهذه الثقافة، فهي في النهاية العقل المكوِّن، الذي يبقى بعد أن ينسى كل شيء، ولقد كان الانحياز إلى البيان، والعرفان وإهمال البرهان، واضحاً في الذهنية الإسلامية، إذ إن المراقب للساحة الثقافية العربية الراهنة التي يتكون فيها العقل العربي المعاصر، يجد أنها ساحة غريبة حقاً، فكل القضايا الفكرية، والسياسية، والفلسفية، والدينية، التي تطرح للاستهلاك والنقاش، قضايا

---

(١) مقدمة تكوين العقل العربي، ص ٥، مركز دراسات الوحدة العربية، طبعة ثالثة ١٩٨٤.

غير معاصرة لنا، فهي إما قضايا فكر الماضي تجتر اجتراراً من قسم من المتعلمين والفقهاء، الذين يعيشون مغتربين بعقولهم في الماضي. وإما قضايا الغرب، تجتر هي الأخرى اجتراراً، بعد أن قطعت من أصولها وأخرجت من ديارها، فأصبحت مشردة، أو لقيطة، تفتقر إلى الكل الذي يعطيها معناها.

من هنا كانت الساحة الثقافية العربية الراهنة، ساحة فكر مغترب يجتر قضايا غير قابلة للهضم، ولا للتمثل، ولا للتحول إلى دم يغذي ويمنح النماء.

لماذا لا نملأ ساحاتنا الثقافية بقضايا من تراثنا لها علاقة مباشرة باهتمامات شعوبنا؛ اهتمامات النخبة والشباب والجماهير، قضايا اللغة وتجديدها، الشريعة وإمكان تطويرها لمطابقة ومعايشة الواقع. قضايا العقيدة، وما شابها من الشوائب، ومن الأغلال التي ألصقت بها؛ من فكرية أو سياسية أو اجتماعية؟

يقول: إن النهايات السعيدة التي تنتهي بها الأفلام العربية عادة، حيث تنحل كل المشاكل في نهاية الفيلم، بما يلبي رغبات الجميع بصورة لا يراعى فيها النظام ولا الترتيب في الأشياء، ولا في طبائع العمران، إنما بحلول سحرية، تتخطى شروط الحياة ومقتضيات المنطق، وكل التوقعات، ويرى أن السياسة العربية الراهنة، سياسة الأفراد والأحزاب والحكام، هي للأسف أشبه

بهذه الأفلام!! لكن هل تأتي طبائع الأشياء بهذه الحلول السحرية؟!![1] إلا بمراجعة جذرية لأفكارنا التي نحملها.

في تلخيص جميل لآراء المفكرين الذين يجدون أن لا مخرج لنا من مأزقنا، ولا عودة إلى الركوب في قطار التاريخ الذي تخلفنا عنه طويلاً، يقول المفكر مصطفى المرابط: إن التجلي التاريخي للإسلام في فترة زمنية معينة هو تجربة بشرية واجتهاد لا بدّ من تجاوزه والإضافة إليه. إنّ على الجماعة الإنسانية في كلّ زمان ومكان، أن تطرح أسئلة لا بدّ منها، وفي إجاباتها عن هذه الأسئلة، يكون معيار تقدمها. إن تلك الإجابات ليست بالضرورة ملزمة إلا لتلك الجماعة التي أنشأتها، في غير زمان ومكان، ومطلوب منا كأناس معاصرين أن نجيب عن أسئلة زماننا ومكاننا، مستلهمين المطلق الذي نعتقده وندين به، عندها تكون الروح الملهمة أمامنا وليست وراءنا. لقد ظلمنا قيمنا عندما حصرناها في مجتمع معين، وفي عصر معين، إنّ قيمنا الآن قادرة على أن تثقف حضارة العالم، إذا أعدنا تجليها في حياتنا المعاشة، وذلك بأن نفرق في التعامل مع تراثنا بين ما هو تاريخي، وما هو مطلق، بين ما هو وحي سماوي، وما هو فهم إنساني. سلطة القيم باقية، لكن علينا التحرر من سلطة النموذج.

---

(١) بنية العقل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، ص ٥٧٢، طبعة ثانية ١٩٨٧، بيروت، بتصرف.

إنه يشبّه التراث بثدي الأم الذي نرضع منه. ومهما استمر الطفل في مرحلة الرضاع فلا بدّ أن يفطم يوماً، لكن هذا الفطام لا يعني بالضرورة أن يعق الطفل أمه، بل سيستمر ولداً باراً بها طيلة حياته. أما العلم الحديث فيسميه أستاذاً، وكوننا نتعلم منه لا يعني أن يستمر التلميذ تلميذاً مدى الحياة، فربما فاق تلميذ أستاذه. وهناك نهضة علمية هائلة في العالم إذا لم نرتقِ بأدواتنا المعرفية، فلن نفهمها أبداً[1].

أما صاحب البوصلة القرآنية، فهو يرى أن سلبية المسلم المعاصر، ليست شيئاً مستجداً أو طارئاً، بل هي تراكمات قرون، مُرجعاً بدايتها إلى الانقلاب الذي أحال الخلافة الراشدة ملكاً عضوضاً، والذي لم يكن انقلاباً سياسياً فحسب، بل انقلاباً اجتماعياً وفكرياً، أحدث مستجدات متنوعة، وانحرافات سلبية في الأمة، بينما كانت في البداية، بداية تكوينها غضة طرية، مما أدى إلى طمس معالم المعجزة القرآنية، التي حصلت نتيجة التفاعل الإنساني، الاجتماعي، الملتحم بالخطاب القرآني، ليحقق أعظم وأغرب طفرة اجتماعية في التاريخ؛ من مجتمع البداوة وتجمعات البدو الرحل، ومن رحلة قريش في الشتاء والصيف إلى مركز العالم في خلال أقل من

---

(١) مصطفى المرابط، أستاذ بكلية العلوم، المغرب، محاضرة ألقيت في مكتبة الأسد في ٢/٧/٢٠٠٥ م.

ثلاثين عاماً، تلك هي المعجزة الحقيقية التي صنعها القرآن، وهذا هو جانب التميز في إعجازه؛ وذلك بتحويل الإنسان البسيط العادي إلى فاعل إيجابي مشارك في صنع المعجزة، وهذا هو سرّ اختلاف معجزة القرآن عن جوهر المعجزات الحسية للرسالات السابقة، فهي تتحقق عبر معجزة القرآن الكريم في تفاعلها مع الإنسان، وصنع المجتمع(١).

جهودٌ جبارة بُذلت لزرع بعض أفكار الجبر والسلبية عميقاً في لاوعي الأمة، لتتقبل كل الظلم السياسي والاجتماعي الذي يقع عليها على أنه قدر من الله سبحانه لا يمكن مناقشته أو الاقتراب من التفكير في أسبابه، أو مدى صحته.

وبين آراء الأشعريين في ردودهم على المعتزلة، ورؤوس الصوفيين الحالمة وشطحاتهم الغرائبية، وفقه فقهاء السلطة، تمّ إلغاء المنظومة السببية التي قامت عليها السماوات والأرض، وكان ذلك بمنزلة قتل وانتحار للعقل المسلم، وتجاوزٍ لكل ما ورد في القرآن عن العقل ومشتقاته وآلياته، وما يتفرع عنه، فجاء إلغاء ربط الأسباب بالمسببات، رفعاً وتعطيلاً لمفهوم العقل القرآني، وإلغاءً له، وإنكاراً لسنن الله في خلقه، فالنار ليست

---

(١) البوصلة القرآنية، أحمد خيري العمري، المدخل، ص ٧٠ بتصرف، إصدار دار الفكر.

هي التي تحرق!! والشبع لا يحصل بتناول الطعام!! والسكين ليست هي التي تقطع، إنما كل ذلك يحصل بفعل الله!! كان ذلك ردّ الإمام الغزالي، وإنكاره على الفلاسفة، ودحض ادعاءاتهم وأفكارهم، فهو لا يجد أي علاقة بين الشرب والارتواء، ولا بين النار والاحتراق، ولا بين طلوع الشمس ووجود النور، أو بين حز الرقبة والموت، أو بين تناول الدواء وحصول الشفاء؛ إذ لا علاقة سببية تربط هذه الظواهر، وفي سبيل إرجاع القدرة الكلية على فعل كل شيء، ألغى سنن الله سبحانه وتعالى، وكرّس وأصّل - رحمه الله - فكرياً لهذا التعطيل للأسباب، الذي نعاني آثاره حتى اليوم(١).

عندما تلغى الأسباب من عقول الناس، وتحل محلها عجائب الممكن والجائز، من تحوّل الكلب إلى غلام أو العكس، والحصان إلى كتاب - كما ورد في التهافت - ما الذي يمنع أن يسمع الأموات في قبورهم أصوات الشاكين الباكين المتشبثين بتلك القبور، لمساعدتهم وإجابة دعوتهم؟!!

في ظلّ غياب السببية والسننية لا يمنع شيء من حدوث شيء، فكل شيء جائز وممكن ما دام لا شيء حقاً سبباً لشيء!!،

---

(١) تهافت الفلاسفة، أبو حامد الغزالي، ص ١٨٩، المسألة السابعة عشرة، دار الهلال، الطبعة الأولى. البوصلة القرآنية، ص ١٧٦.

وعندما ينتحر العقل، ويرفع من التداول، لا يكون سوى أن الخرافة تزدهر وتنمو كنبتة أفيون تعيش وسط أفضل بيئة تناسبها؟ بيئة ألغت العقل، ونفت الأسباب[١].

وفي ظلّ ذلك الحجْر على العقل وإغلاق منافذه كي لا يرتقي في الأسباب، أُقفل أيضاً وبشدة باب التساؤل والسؤال، وتحول التساؤل الإبراهيمي الذي كنا نحن أولى الناس به - حيث كان نقطة انطلاق الديانة الحنيفية، ومن ثم الإسلامية - إلى تهمة حاول المفسرون تبرئة إبراهيم منها، فقضي على السؤال والتساؤل، الذي ركّز عليه القرآن، وسيلة للمعرفة والعلم، (يسألونك - اسأل من أرسلنا - سل بني إسرائيل) في وقت مبكر من عمر الأمة، لتأتي الأجوبة المسكتة، التي لا نقاش فيها ولا حوار، فتحجر العقل، وأصبح السؤال بدعة، والتساؤل شك قد يخرج صاحبه من الملة. ومن قال لشيخه: لِمَ؟ لا يفلح أبداً!!

يستعير العمري في تشبيه لطيف، قصة النبي يونس عليه السلام عندما ذهب مغاضباً وهارباً من تنفيذ مهمته التي أناطها الله سبحانه به، ليلتقمه الحوت، ثم يلفظه سقيماً بعد أن شعر بالندم والحسرة على ما فعل، فأنبت عليه ربه شجرة من يقطين، ثم عاد فأدى مهمته على أتم وجهها.

(١) البوصلة، ص ١٧٧، بتصرف، مصدر سابق.

فيشبه صاحب البوصلة الأمة الإسلامية الآن في تهربها من مواجهة تحديات عصرها، والهروب من مشاكلها، مستكينة قابعة في بطن حوت تخلفها، ومهما طال عليها الزمن فهي خارجة منه لا محالة، فإما أن تأكل من شجرتها المباركة وارفة الظلال، كما فعل النبي يونس عليه السلام، لتعي ذاتها، وتدرك ما يدور حولها، فتؤدي دورها الذي كتبه عليها ربها، أو أن تظل ساكنة في مكانها تموت موتاً بطيئاً كلّ حين في انتظار أجلها المحتوم. أو أن تتبع خطا ما ترسمه لها ثقافة العولمة، وخارطة طريق الشرق الأوسط الكبير، فتأكل من هامبورغر أميركا، وتبقى عالقة في صنارتها، ودائرة في فلكها!!

تدور أفكار البوصلة القرآنية، حول كون المعجزة القرآنية كانت ولا تزال وستظل فريدة ونادرة في الإصرار على مخاطبة العقل - والعقل وحده - في عملية التغيير التي هي هدف كل دين وكل دعوة[1].

لعلّ خلاصة عاجلة للجولة التي قمنا فيها خلال الصفحات السابقة، في تصورات المفكرين حول ما يعدونه أسباب العجز، وما يضعونه من خطط ومناهج للنهوض، يتلخص في التركيز على أمرين اثنين؛ الإخلاص والصواب.

---

(١) البوصلة، ص ٤٢، بتصرف واختصار، مصدر سابق.

يقول مالك بن نبي: نحن بحاجة إلى سيطرة الفكرة الدينية الفاعلة من جديد، لأن التجربة اليومية برهنت على أمرين:

١ - أن الفكرة الدينية لم يعد لها في سلوك الفرد المسلم، ما كان لها من فاعلية في عهد الرسول ﷺ، تلك الفكرة التي صنعت المعجزة الاجتماعية الأولى.

٢ - أن تلك الفكرة تستعيد خلقها بصورة تلقائية، عندما يجري تحريكها وإحياؤها عند قدمي المنبر في محيط المسجد، فالمسلم - المتعب المحتار - يرتاح ويعثر على استقلاله الأخلاقي المتميز في المسجد، حيث يخلق الوعظ لديه الظروف الأولية التي ظهرت فيها الفكرة الإسلامية، لكنه لا يحتفظ بهذا الاستقلال الأخلاقي ابتداءً باللحظة التي يغادر فيها مسجده، فهو يسقط تحت سطوة الكثرة وقانون العدد، فبدلاً من أن يؤثر في الوسط، طبقاً لمثله الأعلى ومبادئه، نجد أن هذا الوسط هو الذي يؤثر فيه فينسيه مبادئه[1].

أما الصواب، فلا بدّ لنا أن نصوب إخلاصنا بكثير من الصواب العالِم، ونتدبر القرآن الكريم لندرك أن الله سبحانه وتعالى لن يغير شمسه ولا قمره ولا سننه من أجلنا، مهما تلونا القرآن أو جأرنا بالدعاء ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ

(١) ميلاد مجتمع، مالك بن نبي، ص ١٠٤ - ١٠٥، بتصرف، مصدر سابق.

وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [يس: ٣٦/ ٤٠].

يقول المفكر جودت سعيد: لكي تستقيم العلاقة مع الله، لا بدّ من التعرف السنني على الله، لأننا بالتصور الخارقي المسيطر على عقولنا - بعد أن ألغينا الأسباب - نظن أنه سبحانه لا يتعامل مع عباده على أساس السنن، بينما هو سبحانه وتعالى يقول: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ ﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٦٢] فإذا لم نتخلص من الفكر الخوارقي وسيطرته على عقولنا، الذي لم يجلب لنا سوى المصائب المتتالية، سنبقى في تخبطنا المفاهيمي، لن يخلصنا منه، ويريحنا، إلا أن ندرك ونفهم أن كون الله قائمٌ على أساس السنن، وليس على أساس الخوارق[١].

---

(١) جودت سعيد، حوار عبد الجبار الرفاعي، ص ١١٣ - ١١٤، بتصرف، دار الفكر الإسلامي المعاصر، عام ٢٠٠٠.

منهجية التغيير

للبدء في عملية الإصلاح، لا بدّ من معرفة مواطن الخلل في منهجية التفكير الإسلامي، ولا بدّ أن يتناول التغيير والإصلاح أصول الخلل وأسبابه، وليس مجرد المضاعفات. للأسف فإن قصورنا المنهجي في تطبيقاته، أدى إلى عدم إدراكنا لأسباب التخلف، وما ترتب عليها من أمراض، لعلّ أهمها نشأة نفسية العبد، لدى الإنسان المسلم، إنسان عصور التخلف والانحطاط، فغياب الوعي المنهجي المبني على مفهوم التوحيد الذي جعل العبد حراً ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾﴾ [العلق: ١٩/٩٦]، أدى إلى سهولة الوقوع في الجانب النظري، بعيداً عن الجانب التطبيقي، وعندما عجزت القيادات الفكرية والاجتماعية عن تسويغ فكرها، لجأت إلى أساليب الإرهاب، وتكوين نفسية العبيد؛ عبد العصا، وعندما فقدنا الطاقة النفسية الحرة الفاعلة، لم تعد تجدي معنا مواعظ الخطباء، لأن الطاقة النفسية تتكون في مرحلة الطفولة الأولى، التي نقضي عليها، لسهولة الانقياد. إن البالغ الذي لا يملك طاقة نفسية فعّالة يكون كالمدمن، الذي يقر أنه على خطأ، لكنه لا يملك الطاقة للإقلاع عن الخطأ، فالوعظ العقلي لمن لا يملك الطاقة لا يجدي نفعاً،

القضية قضية قصور منهجي، انتهى بالأمة وعلمائها إلى العجز المعرفي وخاصة في الشؤون النفسية والاجتماعية، أدى إلى فقد الطاقة النفسية الإيجابية الفاعلة (الإرادة) فعندما تغيب الإرادة الجازمة تصبح القدرة والإمكانية معطلة مهما بلغت من القوة، وتصبح (لا أستطيع ولا يمكن ومستحيل) أهون الحلول.

لا بدّ من الإصلاح المنهجي المبني على أساس التوحيد، للقضاء على أسباب العجز والفصام النكد بين القدرة والإرادة. إن إصلاح الأمة في هذه المرحلة يتوقف على الإصلاح المنهجي المدروس وليس العشوائي، الذي يتصدى بشكل ناجع للأمراض النفسية، التي تمكنت من المسلمين، وخاصة للتخلص من نفسية العبد، مع تربية المسلم على روح الجماعة؛ فلا ينشأ فردياً ولكن يكون عضواً في جسد - في مجتمع، إن المجتمع لا يصلح حاله ما دام منهجه مختلاً، ووسائل التربية فيه قاصرة بحيث تكوِّن إنساناً فردياً مُرهَباً، فإنسان الخلافة لا يمكن إلا أن يكون عضواً في مجتمع يعتز بإيمانه ويثق به، ويسعى إلى عون إخوانه ورعاية الكائنات من حوله. إن قدرة المسلمين على المشاركة الحضارية تتطلب إصلاح المنهج التوحيدي، وخاصة العناية بالبناء النفسي للطفل الذي يعتمد تكوينه على مرحلة الطفولة الأولى[١].

---

(١) إصلاح منهجية الفكر الإسلامي، عبد الحميد أبو سليمان، ص ١٧١ - ١٧٣، بتصرف، حوار عبد الجبار الرفاعي، إصدار دار الفكر، ٢٠٠٠.

تنصبُّ رؤية د. عبد الحميد أبو سليمان الإصلاحية، في العناية بالطفل من خلال خطاب تربوي إيجابي، يقيم بينه وبين الله علاقة مودة ورحمة وتواصل.

لقد اعتبر أن البالغ من الصعب تغييره، لأنه يكون مثل مدمن التدخين يقرّ بضرره، لكنه لا يملك الإرادة الكافية للإقلاع عنه.

يذكر أن علينا في محاولة الإصلاح، أن نأخذ العملية التربوية مأخذاً علمياً جدياً، وأن ندرك العوامل النفسية في تنشئة الطفل، لأن الجهل في هذا المجال أدى بنا إلى الوقوع في أخطاء تربوية فادحة، تعيد إنتاج الإنسان العاجز، حيث جاءت اهتماماتنا التربوية منصبة في حشو رأس الطفل بالمعلومات، غافلين عن أن الأهم في هذه المرحلة المبكرة من العمر هو سلامة البناء النفسي للطفل، وتأتي بعد ذلك تنمية المهارات، أما المعلومات فإن المهم منها ما كان أساسياً، حيث إن المعلومات أمر لا ينتهي، فهو ينمو ويتغير مدى الحياة.

إنّ علينا في عمليات التربية والتعليم كافة، وفي جانب المعلومات خصوصاً، أن نراعي جوانب تأثيرها النفسي في الطفل، وأن نسهم في بناء هذه النفسية إسهاماً إيجابياً.. لأن مثل هذا المنهج هو الذي يحقق أهداف التربية الإسلامية، محبةً لله، وتحملاً للمسؤولية، وقدرة على البناء والتطلع إلى لقاء الله دون

خوف ولا وجل، أو هلع، فيسعى في الأرض بالإصلاح، فلا يتخلف عن واجب، ويتفانى في أداء الخلافة التي استأمنه ربه عليها، وخلقه من أجلها[١].

يرى د. أبو سليمان أن من أهم الأخطاء في تربية الطفل المسلم، توجيه الخطاب القرآني إليه، مع أن المقصود بهذا الخطاب هم البالغون الذين اكتمل كيانهم النفسي، ليغرس في نفوسهم حس المسؤولية الأخلاقية والحضارية.

لنا في رسول الله أسوة حسنة؛ فهو حين خاطب الطفل خاطبه خطاباً أقام بينه وبين الله علاقة مودة وتساند، وعرّفه صفات القوة والشجاعة، فكان خطابه خطابَ حب ومودة ولم يكن خطاب تهديد ووعيد، لم يخاطبه بمثل قوله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾﴾ [الحاقة: ٦٩/ ٣٠-٣١] ولكنه قال عليه الصلاة والسلام: «يا غلام احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك»، فكان خطابه للطفل خطاباً تربوياً إيجابياً أقام بينه وبين الله علاقة مودة ومحبة متواصلة، وبنى في نفسه الشجاعة الأدبية والمادية، وهو أنه عندما يفعل شيئاً ما يجب أن يصدر عن قناعة، فيفعله بقناعته هو، لا ما يريده الآخرون ولا خوفاً منهم «إذا

(١) إصلاح منهجية الفكر الإسلامي، د. عبد الحميد أبو سليمان، ص ١٧٤، مصدر سابق.

سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله»[1] [رواه الترمذي] من حديث طويل ورد في رياض الصالحين ٦٣، ص ٧٣.

(١) إصلاح منهجية الفكر الإسلامي، د. عبد الحميد أبو سليمان، ص ١٧٣، مصدر سابق.

عثرات في طريق النهوض

يقول مالك بن نبي في مقدمة كتابه (مشكلة الثقافة): إن تنظيم المجتمع وحياته وحركته، أو فوضاه وخموده وركوده، كلها أمور ذات علاقة بنظام الأفكار والتقاليد المنتشرة في ذلك المجتمع، وعلى هذا نجد أن أهمية الأفكار في حياة مجتمع مُعيّن تتجلى في صورتين:

فهي إما أن تؤثر فيه بوصفها عوامل نهوض بالحياة الاجتماعية، وإما أن تؤثر على عكس ذلك بوصفها عوامل ممرضة تجعل النمو الاجتماعي صعباً أو مستحيلاً، فإنّ مراحل تطور المجتمع هي في الحقيقة أشكال متنوعة لتطوره الفكري، ولما يحمله من مبادئ، فإذا انطبق على إحدى هذه المراحل ما يسمى النهضة، فمعنى هذا أن المجتمع في هذه المرحلة يتمتع بنظام رائع من الأفكار والمبادئ، نظام يتيح له إيجاد حل لكل مشكلة من مشاكله الحياتية اليومية، بشكل يتناسب مع مبادئه وقيمه.

أما عندما تغيب شمس الحضارة عن مجتمع ما، وتبدأ مرحلة الأفول، فإن هذه الأفكار الرائعة، والتقاليد العريقة، تفقد دورها الفاعل، لتغدو قيوداً وآصاراً تكبل الناس، معيقة

حركتهم، لا يملكون قدرة ولا حيلة للإفلات منها، لأنها أصبحت جزءاً من الثقافة اللاواعية، ينتج عنها أمراضٌ اجتماعية تنتقل عن طريق العدوى بالجراثيم الفكرية الناقلة للأمراض الاجتماعية من جيل إلى جيل[١].

تكاثرت بعض هذه الآفات السيئة، والأمراض الاجتماعية، وتعملقت في دهاليز تصرفاتنا، لا نقيم لها وزناً، ونتركها تعمل فتكاً وتخريباً في نسيجنا العضوي، بعد أن تعطل جهازه المناعي (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) عن العمل فعجز عن مقاومتها. وأشد ما أخشاه، إن نحن استمررنا في السكوت الجماعي السلبي، والتغاضي كأن الأمر لا يعنينا، أن يصيبنا ما أصاب بني إسرائيل من اللعن والطرد من رحمة الله؛ لأنهم ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [المائدة: ٥/٧٩].

يئس الشيطان أن يعبد في ساحاتنا الإسلامية، بعد أن طرده منها نور الإيمان، ونقاء التوحيد، لكنه رضي بالتحريش بيننا، وبما نحقره من الذنوب.

إن مجرد الشعور بالمرض لا يعني العافية، مريضنا شعر

---

(١) مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، المقدمة ص ١٣ - ١٤، بتصرف، دار الفكر، الطبعة الرابعة، ١٩٨٤.

بمرضه منذ قرن أو يزيد، لكن المسكنات التي تناولها عندما أسرع إلى أقرب صيدلية إليه، عالجت العرض، ولم تقضِ على أسباب المرض.

إنها لحظة فارقة، بين عهد الفوضى الأخلاقية الجامدة، والجمود الفوضوي الذي نحاول أن نتجاوز فيه الحاضر الكئيب المظلم إلى مستقبل مشرق باسم بإذن الله. لعلّ من أهم واجباتنا الملحة في هذه اللحظة التاريخية، كما يقول مالك بن نبي: تصفية عاداتنا وتقاليدنا وإطارنا الخلقي العام، مما علق فيها من رمم بالية لا فائدة منها، لكي يصفو الجو للعوامل الحية، الداعية إلى الحياة.

لا بدّ لعملية التصفية والتنقية من طريقتين:

الأولى سلبية تفصلنا عن رواسب الماضي بكشفها، والتخلص منها.

والثانية إيجابية تصلنا بالحياة الكريمة، قائمة على اعتبارات أساسية هي أن لنهضتنا أساساً ثقافياً، وقواعد أخلاقية لا يمكن إعادة البناء وتشييده إلا بهما[1].

كما خلق الله سبحانه وتعالى الجمال في الكون ليتمتع به الناس، كذلك جعل الجمال المعنوي في الأخلاق، لترتقي به

(١) مشكلة الثقافة، مالك بن نبي، ص ٧٠ - ٧١، بتصرف، مصدر سابق.

مشاعرهم وتصرفاتهم القائمة على النظافة الخلقية؛ لكن التلوث الفكري والاجتماعي والبيئي وأبخرة العالم المتقدم السامة التي تأتينا بها الريح، جعلنا نفقد الإحساس بالجمال المادي المبثوث في الكون، بعد أن فقدت السماء زرقتها، والأشجار خضرتها - والجمال المعنوي في الأخلاق القائمة على قيم ديننا، مما جعل الأخلاق نسبية ونفعية، فأفقدها جمالها.

يرى المفكر الأستاذ جودت سعيد أن الأزمة التي يعيشها العالم المعاصر، بكافة أطيافه وطوائفه، هي أزمة أخلاق بالدرجة الأولى؛ إذ إن الأخلاق أصبحت نسبية، لأنها وضعت في خدمة المصلحة العاجلة، فأصبح الإنسان ينسى أخلاقه ومبادئه، في سبيل تحقيق أكبر منفعة في حياته الدنيا، وينسى الآخرة التي هي خير وأبقى[1] نسيت أميركا كلّ مبادئها، عندما أعلنت الحرب في أفغانستان والعراق، ودافعت بصفاقة عما يرتكبه جنودها هناك من جرائم ضدّ الأخلاق والإنسانية.

كثير من أمورنا، وشؤوننا الحياتية، أصبح يسير في اتجاه معاكس تماماً لما نؤمن به ونعتقده، وما يجب أن يكون عليه أمرنا. ولأن الله سبحانه أراد لنا أن نعيش في بيئة تتمتع بالنظافة الخلقية، والرقي التعاملي، ليصل بنا إلى مرتبة الإحسان التي تقود

---

(١) حديث للأستاذ جودت سعيد، في منزله في قاسيون.

خطانا إلى الجنة في الأرض، قبل أن يدخلنا جنته في السماء، فقد حذرنا في كتابه الكريم من آفتي الغيبة والنميمة، ناعتاً إياهما بأبشع الصفات، لما لهما من تأثير سيئ في سلوكيات الناس وتعاملهم ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ [الحجرات: ٤٩/ ١٢]. نتقزز من مجرد تصور أن أحدنا يأكل لحم أخيه الميت، وتقشعر أبداننا من تلك الصورة المنفرة!!

ورسولنا عمل طيلة حياته في مجتمعه على تنظيفه من أشواك الجاهلية الشركية في الاعتقاد وفي التعامل، وعلّم الناس بسلوكه العملي، ورقيه الأخلاقي ما لم تصل إليه البشرية في أعلى مراحل تحضرها. وعلى شدة خشوعنا بتلاوة الآيات، وإعجابنا بسيرة نبينا القولية والفعلية، حفظاً وترديداً، ما نزال مستمرين في نهش لحوم بعضنا البعض أحياء، وميتين، نلوكه بألسنتنا، نستطيب طعمه على مرارته، خاصة نحن معشر النساء... وآه منا معشر النساء!!

نعقد مجالس خاصة بالغيبة والنميمة وإفساد ذات البين، ابتغاء تسلية عابرة وقتل لوقت رخيص، ولربما تلقي إحدانا الكلمة لا تلقي لها بالاً، فتتردى بها في أودية جهنم(١).

أما عن بعض عاداتنا - التي ربما كانت حسنة عندما ابتدعها

---

(١) قال ﷺ: «إن العبد ليتكلم بالكلمة لا يلقي لها بالاً يزل بها إلى النار أبعد ما بين المشرق والمغرب» متفق عليه، رياض الصالحين ١٥٢٢، ص ١٤٤.

الناس، لكن مرور الزمن، وإساءة الاستعمال، أفقدها صلاحيتها، وأحالها إلى قيود تكبل حياتنا - فنحن نمارسها في أفراحنا وأتراحنا، تثقل كاهل حياتنا، وتنهك جيوبنا، نعض عليها بالنواجذ، نخشى الناس، مع أنهم جميعاً يجأرون بالشكوى والنقد على أمل التحرر منها، وكسر قيودها الغامضة!! من الذي سيفعل ذلك إذا لم نفعله نحن؟!!

عطلنا جهاز الإنذار؛ النفس اللوامة، الضمير الذي أودعه الله في صدورنا، حتى بتنا على شعب كثيرة من النفاق، نعيث فساداً في علاقاتنا الأسرية والمعاملاتية، نفاق اجتماعي، نفاق في العمل، نقطع رقبة من لنا مصلحة عنده بالمديح الزائف، ونكيل له أشنع التهم إذا غاب عن ناظرنا!!

أما أرحامنا فنعمل فيها تقطيعاً، وتشويهاً وإفساداً متناسين قوله تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾﴾ [محمد: ٤٧/ ٢٢].

جارنا الذي أوصانا به كثيراً ربنا ورسولنا حتى كاد أن يورثه، وقد أقسم ﷺ ثلاثاً بنفي الإيمان عن الذي لا يأمن جاره بوائقه... يلتقي الجاران أحياناً فيعرض هذا ويعرض هذا، ويبخل أحدهما بإلقاء السلام على جاره، وربما يجهل أنه جاره!!. أصابنا الشح التعاملي حتى أصبح أحدنا يبخل بالابتسامة يحتسبها صدقة عند الله!!.

أين الالتزام بالوعد والعهد؟ لقد باتت مواعيدنا مجالاً للتندر والاستهزاء، فيقال لمن لا يلتزم بوعده: إنه وعد إسلامي. نقول عن الأمر الذي نتهرب منه ولا نبغي تنفيذه: سأفعل إن شاء الله، بينما القائل والسامع يعرفان أنها كلمة تقال للتهرب من الالتزام والوفاء، أصبحنا نشتري بعهد الله ثمناً قليلاً!! ونهدر أيماننا دون ثمن... أين الصدق في أقوالنا، الذي أخبر عنه نبينا الكريم أن المؤمن قد يتلبس في حياته بكثير من الصفات السيئة، لكنه لا يمكن أن يكون كذاباً، فتنتفي عنه صفة الإيمان؟.

ماذا عن الظلم الذي نمارسه في دوائر حياتنا؟ كلّ ذي سلطة يمارس الظلم على من دونه، فأصبح إنساننا مقهوراً عاجزاً، لا حيلة له، لأن ظلم ذوي القربى أشد مضاضة وألماً من ظلم الغرباء والأعداء..

هل شوارعنا وحاراتنا شوارع مسلمين؟ إماطة الأذى عنها بند من بنود دينهم وشعبة من شعب إيمانهم؟.. هل إذا عمل أحدنا عملاً يتقنه؟.. هل، وهل، وهل.. إنها قائمة طويلة.. هل نستمر في السكوت، والتغاضي، والإهمال حتى تذهب ريحنا، وتصيبنا الحالقة، ليست تلك التي تحلق الشعر، لكنها تحلق الاستقرار الإيماني والأسري والاجتماعي، قوارض تأكل الأخضر واليابس، نستخف بها، لا نقيم لها وزناً، لكن النار التي تأتي على كلّ شيء في النهاية تكون عادة من مستصغر الشرر، الذي لا يؤبه به.

إنها محطات ولقطات سريعة تلقي الضوء على واقعنا التعاملي. آفات تفتك في لُحمتنا الأسرية والاجتماعية، قد لا تظهر نتائجها إلا بعد أن تستعصي على العلاج ويكون أوانه قد فات.. إنها عثرات في درب الناس تعيق مسيرتهم، تنغص مفردات حياتهم، حتى أصبحنا جميعاً إخوة أعداء، كل يتربص بأخيه الدوائر، في البيت، أو في العمل، أو في الإنسانية، لكنها إذا دارت فستدور علينا جميعاً.

شؤون وشجون، كبيرها وصغيرها، كلها مُلِحٌّ وعاجل ومهم... عورات وعثرات ما عاد الأمر يحتمل إهمالها والسكوت عنها، تفتك في لحمتنا الأسرية، وتهدم بنيتنا الاجتماعية عقبات تقطع طريق الناس، تعيق حركتهم، تنغص مفردات حياتهم، بحاجة إلى جهود كل من كان في قلبه، أو بقي فيه، غيرة على... إسلامنا.. وأوطاننا... ومستقبل أولادنا...

أسئلة حائرة، تبحث عن إجابات، أطرحها للتساؤل والنقد الإيجابي البنّاء، لا للانتقاد أو التشفي، لعلي أجد من يشاطرني الهم والاهتمام، والرغبة في العمل.. في البناء، وليس في الهدم، فإنما هو مجتمعنا يصلُح بصلاحنا.. كما قال الشاعر:

وما أنا إلا من غزية إن غوت غويت
وإن ترشد غزية أرشد

١ - أتساءل عن خطابنا المعاصر - الديني منه على وجه

الخصوص - هل هو على مستوى العصر؟ أو على مستوى الرسالة التي نحملها، أو التحديات الكبيرة التي تواجهنا؟

٢ - ماذا عن حرية الرأي، واحترام الآخر؛ عدم مصادرته أو إعدامه؟ هل بدأنا نفكر، بطريقة أخرى للحوار غير التي تعودناها، وقد أصبح ذلك مطلباً للجميع، وحقاً ينادي به كل إنسان؟!

٣ - لغتنا العربية - لغة القرآن وضمير الأمة - ماذا نفعل بها؟ ماذا عن انحسارها عن ساعات التدريس في المدارس، وعن ساحات التداول على الألسن؟

٤ - ماذا عن وضع المرأة؛ وضعها المتردي مهما حاولنا الإنكار؟ ماذا يفعل بها، وماذا تفعله هي بنفسها؟

إنها قائمة طويلة من آفات استوطنت بيئتنا الفكرية والاجتماعية، لا نقيم لها وزناً، تكاد تفتك بنا وتستعصي على العلاج... هل نسكت؟ هل نستمر؟ هل ننام، أو نتناوم؟ أم نبدأ في محاسبة أنفسنا؟ «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وتزينوا للعرض الأكبر، إنما خفَّ الحساب يوم القيامة على من حاسب نفسه في الدنيا» رواه الترمذي.

والعمل على الإصلاح، في النفس.. في البيت.. والمربع الذي يتحرك كل منا فيه، وعندما نعقد العزم ونأخذ الأمر جادّين، لا

أظن أن (بوش) وحاشيته، ولا (شارون) وأعوانه ولا إبليس وجنوده، يملكون السلطة أو المقدرة على منعنا من محاسبة أنفسنا وإصلاح شأننا.. يقال: إن درب ألف ميل يبدأ بخطوة... فهلا بدأنا.

الخطاب العربي المعاصر

سؤال مؤلم، ولكن لابدّ من طرحه: هل خطابنا الديني يأتي على مستوى العصر الذي وُجدنا فيه، أو التحديات التي نتعرض لها؟ أو على مستوى الرسالة التي نحملها؟

إنّ الخطاب العربي الراهن بكافة أطيافه - كما قال عابد الجابري في نقده له - يجتر أقوال السابقين واللاحقين؛ الشيخ يستشهد بأقوال السابقين من علمائنا، ومن تلبس بالحداثة والعصرنة يأتي بأقوال أساتذته، دون أن يجرؤ هذا ولا ذاك، على التفكر في مقولاتهم وأقوالهم، لا يستعمل أحدهم لغة الذات الواعية؛ التي تدرك ماضيها فتأخذ أحسن ما فيه، دون أن تحبس نفسها في مقولاته، وتأخذ من تجارب الآخرين وآرائهم دون أن تدور في أفلاكهم، لغةَ الواقع المعاش البعيدةَ عن الانبهار أو الإعراض، فليس كل ما عندنا نور وما عند الآخرين ظلام.

عندما أتابع إحدى الفضائيات التبشيرية التي نبتت في سمائنا كالبقل في تكاثرها، يتحدث فيها مبشر هادئ، متمكن من مقالته، واثق من قوله، محاطٌ بمناظر خلابة تريح العين،

ومؤثرات صوتية تطرب الأذن، أنيقٌ في ملبسه، تعلو وجهه ابتسامة رسمها بإتقان، مستعين ببراعة لغوية، يرقص على حبل كلماته، يتفنن في نقل معانيه، ليقدم شِرْكَه على أنه توحيد خالص، ومعتقده على أنه الحق الأوحد... أحمد ربي أني مطمئنة في إيماني، قانعة بيقيني، لا أنخدع بمعسول قوله، كما لا أخاف على من يماثلني في العمر من الجيل الذي نشأ وتربى على الإيمان، فاستقر في قلوبنا، وتشربته نفوسنا، فبات لا يمازجه شك المشككين، ولا عبث العابثين بحمد الله (مع أنني سمعت قصة إحدى المتنصرات التي بذلت جهودها التبشيرية مع أمها المسلمة التي تجاوزت التسعين حتى نصَّرتها) لكني أتساءل: ما حال من كان قليل بضاعة من علم أو يقين إيماني، من جيل الأبناء الذي فقد توازنه اليقيني بين أنياب قوارض الإيمان، التي تنهش فيه في غياب الأهل أو تشاغلهم بتوافه حياتهم المادية يلهثون وراءها، تاركين مهماتهم الأساسية في التربية القويمة وتنمية الفطر السليمة، وترسيخ الإيمان في قلوبهم، ألن يفتنهم هؤلاء المبشرون عن دينهم؟ إن لم يكن بالخروج منه، فعلى الأقل بزرع بذور الشك في عقولهم الغضة، وزعزعة جذور الإيمان في أعماقهم.

إنّ من يتابع حوارات الدردشة التي تدار على المواقع التبشيرية باللغة العربية - لمن لا يتقن غيرها - ليصيبه صداع الدهشة من تغافلنا وغض الطرف عما يدبر لأجيالنا الحالية والقادمة!!

لا أملك توجيه الاتهام إلى أحد، لأنه خطاب مسيطر يخوض فيه أكثر المتحدثين، إلا أني عندما أستمع إلى الباطل، وما يتقنه ويستعين به من زخرف القول لتزيين باطله، أعجب ممن يوقن أن ما عنده هو الحق، كيف يتكلم خلف الشاشة، ليلقي خطبة حماسية بأسلوب وعظي مباشر، كأنه يتحدث إلى مجموعة من مريديه وأتباعه، وهو على يقين من أن أحداً منهم لا يرجع له قولاً، ولا يناقش له فكراً، لأن قوله عندهم هو الحق الذي لا يحتمل جدالاً ولا مراءً.. وآخر يدافع عن الحق الذي يعتقده بخجل واستحياء، يستجدي تصديق السامعين كأنه يطلب منهم مساعدته على ترسيخ يقينه بالحق الذي يعتقده ويدافع عنه!! وددت لو أن أحداً من الذين يُستدرجون إلى الفضائيات، للدفاع عن متهم العصر الأوحد، الذي أصبح من حق الجميع توجيه الاتهام إليه (الإسلام) محاولين الشرح والتبرير لأحكام الإسلام وحيثياته الخاصة بالمسلمين، وددت لو سأل سائله - والهجوم كما يقال أفضل وسيلة للدفاع-: لماذا يكون لكل دين أو مبدأ سماوي أو أرضي، ولكل حزب أو تجمع من الناس، مهما كانت الصفة التي تجمعوا عليها، حتى الشواذ المخالفين لكل الفطر والأعراف، لماذا يكون لهم خصوصية تحترم من قبل ميثاق الأمم المتحدة والمنظمات التي ترعى حقوق الإنسان، والحيوان، لو تجرأ أحد على انتقادها لوجهت إليه أكبر التهم من تخلف

ورجعية، ناهيك عن وقوفه في وجه الحضارة وتقدم البشرية[(١)]؟ بينما الإسلام لا حرمة له ولا خصوصية، فهو مستباح منتهك على قارعة الفضائيات والصحف، أو المجلات، وفي جميع المحافل المحلية أو الدولية، كل من ملك قلماً أو لساناً، يستطيع أن يخوض في خصوصياته وجزئياته التي تخص الملتزمين به وأهله.

يستدعون من يشاؤون ليحصلوا على الإجابة التي يريدون، من طعن أو قول شاذ عن الإسلام، ليقولوا إن هذا هو الحق الذي لا يأتيه الباطل. استضافت إحدى الفضائيات المشهورة بإعلامها العاري، فنانة مشهورة بأدوارها وفنها الذي يحارب الحياء، لتتحدث عن الإسلام، بغير علم ولا هدى، ولا خجل، تحلل تحرم تفتي من منطقها فيما يجوز وما لا يجوز في رأيها السديد... وهكذا كل من أتيح له منبر يتكلم منه يجد أن له الحق في تعليم المسلمين أمر دينهم كما يرتضيه لهم!!

تمنيت لو أن أحداً ممن تكلم مدافعاً عن أحكام الإسلام على استحياء وخجل، وكأنها عورات في ديننا يخشى على الحضارة الحديثة منها، فهو يحاول سترها، أن يقول لمن نصب نفسه قاضياً

---

(١) تجرأ إمام أحد المساجد في هولندا، عندما سُئل عن زواج المثل في التسمية الحديثة، بعد أن ألبسوا القذارة ثياباً براقة، واللواطة والسحاق باسمه الطبيعي فأجاب: إن الإسلام مثله مثل كل الأديان السماوية، والأعراف، يحرم هذا الفعل المنافي للطبيعة، فأدخل السجن وأغلق مسجده.

يحاكم الإسلام، في ساعة حرة على الهواء مباشرة، في دقائق مفرداته: إن الإسلام نظام رباني شامل، ارتضاه ربّ العالمين للمسلمين، ينظم لهم شؤون حياتهم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، ينظم علاقتهم بخالقهم، وبالناس من حولهم وطريقة تعاملهم مع الكون الذي يعيشون فيه، والذي سخره الله للناس جميعاً، تعامل مودة وتسخير، دون إيذاء أو قهر، بطريقة مختلفة عن الحضارة التي قهرت الطبيعة وآذتها.

تمنيت لو أن أحد المدافعين شرح لمحاوريه معنى لا إكراه في الدين، ولا في الرأي ولا في طريقة الحياة؛ فالإسلام لا يجبر أحداً على قول مقالته، ولا اعتقاد عقيدته، ولا الامتثال لشرائعه، إلا إذا شاء ذلك طائعاً مختاراً ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ [البقرة: ٢/٢٥٦]. أمر رباني لم تعرفه دساتير البشر قديمها ولا حديثها، حتى المسلمون لم يرتقوا بعد إلى مستوى هذه الآية التي كرمت الإنسان من خالقه وبارئه حتى في حرية اختيار الكفر.

أما ما نشاهده وما نسمع عنه من تصرفات طائشة من بعض خوارج العصر، فهو فكر غربي وممارسات طائشة لا يُسأل الإسلام عنها، بل هو بريء منها!!

لكن مبدأ اللاإكراه يعني في الوقت نفسه القول لمن جاء يفصّل لنا ديننا على مقاساته الشخصية: ﴿كَلَّا لَا تُطِعۡهُ وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب۩ ١٩﴾ [العلق: ١٩/٩٦].

وددت لو أن أحداً من المتصدين في زحمة الضجة الإعلامية التي رافقت إمامة إحدى السيدات للمصلين، أن يخرج من إطار خطابه الفقهي - الذي هو في أساسه معني بأمر المسلمين الملتزمين به، لا من أجل إقناع الآخرين - ليسأل محاوره: لماذا لا تؤم المرأة المصلين في الكنائس الكاثوليكية التي يقارب عدد أتباعها أعداد المسلمين؟ ولماذا ليس في تاريخ الفاتيكان راهبة نصبت أو تبوأت منصب البابا، على الرغم من تحرر النصارى، وادعاءاتهم أن المرأة عندهم نالت حقوقها كافة، وتساوت مساواة مطلقة بالرجل؟ لماذا لا تطالب الجمعيات النسوية والمدافعات عن الجندر، بالنظر في وضع المرأة بالديانة اليهودية؛ حيث يتجه المؤمنون في صلواتهم إلى الله يشكرونه أن لم يخلقهم نساءً؟. أم إن كل ما هو محرم علينا مباح لغيرنا دون سؤال ولا مساءلة؟ فإذا ما ارتفع صوت خافت منا بالشكوى فهو خارج على العصر، شارد عن سكة التحضر؟!!

وعندما يكون الحديث عن المرأة - وكثيراً ما أخذ الحديث يدور في إعلام العالم عن المرأة المسلمة المضطهدة، التي أنساهم الاهتمام بأمرها كلّ مشاكل الفقر والقهر والظلم التي تعم المنسيين على الكرة الأرضية - فإن شيوخنا الأكارم ما استطاعوا في خطاباتهم عنها، التحرر من نظرتهم التقليدية إلى أنوثتها فقط، فإذا سئل أحدهم عن السبب في أن الله سبحانه أمر المرأة ألا

تخرج على الناس بزينتها، أجاب بداهة: حتى لا يفتن بها الرجال!! وإذا سئل آخر: لماذا لا يسمح لها أن تؤم الرجال في الصلاة؟ أجاب من فوره: حتى لا يفتن بها المصلون من خلفها!! حتى لو كانت سيدة عجوزاً من قواعد النساء.

حصروا فقههم - سامحهم الله - في تنظيم علاقة بين ذكر لا همَّ له في الحياة إلا ملاحقة الأنثى بنظراته أينما وجدت، مشغول بالافتتان بها حتى في صلاته بين يدي ربه، وأنثى لا همّ لها إلا إغواء ذلك الذكر وإيقاعه في براثنها.

يقول مالك بن نبي: إن الذي يدّعي الدفاع عن حقوق المرأة وحريتها، مطالباً بخروجها إلى المجتمع بكامل زينتها، متخففة من كثير من ملابسها، لا تختلف دوافعه عن الذي يريد إبقاءها في سجنها التقليدي بحجة المحافظة عليها، كلاهما ينظر إليها بعين غريزته الجنسية، فهي قد اختزلت في نظر الاثنين من إنسان إلى أنثى[1].

حبس خطابنا الديني المعاصر نفسه في دائرة المرويات والمنقولات، يعيش ضمن مقتنياته الفكرية، التي جاهد نفسه باستذكارها، لنيل ألقابه العلمية، لا كبيرَ خلاف بين من كان

---

(١) مالك بن نبي، شروط النهضة، مشكلة المرأة، ص ١١٤، إصدار دار الفكر، دمشق.

شيخاً بعمامة تقليدية، ومن نال شهادة الدكتوراه من إحدى الجامعات الإسلامية، كلاهما لا يتكلم لغة عصره، ولا يعيش واقع الناس، إلا من رحم ربي. ولولا بعض الدعاة الشباب الذين خرجوا من جلباب المؤسسة التقليدية، فارتدوا غير لباسها، وتحدثوا بغير مفرداتها، فخاطبوا الناس على قدر عقولهم، مستعملين لغة عصرهم؛ إذن لأدار جيل الشباب ظهره كلياً للخطاب الديني، ولأرباب الشعائر الدينية الذين يقيسون الحاضر على الماضي، فلا يستطيعون حلّ إشكالات الحاضر، ويصدمون باستحالة إحالتها على الماضي، لاختلاف الأمكنة والأزمان، فتبقى تلك الإشكاليات معلقة في الفراغ.

دون شعور مني أجريت مقارنة بسيطة بين خطاب تقليدي، يخاف أن يخرج من دائرة قال فلان عن شيخه فلان، وبين خطاب معاصر يعيش إسلامه وواقعه بقوة وثبات رأي، دون خوف وخجل واختلاق للأعذار.

في مقال لإحدى المسلمات البريطانيات، التي دافعت بثبات وحزم عن ارتدائها اللباس الإسلامي في عملها، حتى أصدرت محكمة الاستئناف البريطانية حكماً قضائياً لمصلحتها، تقول: أدهشني كثيراً أن تثير رغبة فتاة مسلمة في ارتداء ثياب تتوافق مع تعاليم دينها كلّ هذا الاهتمام من الإعلام المحلي والعالمي!

لماذا ألاقي كلّ هذه المعارضة من شخصيات مشهورة ضدّ

رغبتي في ارتداء ما يناسبني ويتناسب مع ممارستي للواجبات الإسلامية المفروضة علي؟ أين حريتي الشخصية؟ ولماذا أصبح لباس المرأة المسلمة موضوع نقاش وجدل، وإثارة لكل هذا القدر من الغضب، بعكس أي ملابس أخرى؟ ما زالت الصياغات الجاهزة التي تردد أن الخمار والجلباب يمثلان ثقافة رجعية، إضافة إلى كونهما شكلاً من أشكال التميز ضدّ المرأة!!.

إنها لفكرة غريبة - كما تقول - أن يكون تحرير المرأة يعتمد على المقدار الذي تعرضه من جسدها على الملأ! لماذا يرون أن الفتاة تعبر عن شخصيتها عندما ترتدي (تنورة قصيرة)؟ بينما تتعرض أخرى للضغوط إذا ارتدت اللباس الساتر، ولو حصل ذلك بمحض إرادتها، وانطلاقاً من فهمها الخاص لدينها؟

ثم تختم مقالتها بالسؤال: لماذا تريدون مني أن أتخلى عن هوية تقدر إنسانيتي، وتقدر قيمة تفكيري ومهاراتي، بدلاً عن طول (تنورتي)؟!!.

وبعد أن تنتقد الدرك الأسفل الذي انحدرت إليه المرأة في الغرب - شهد شاهد من أهلها - تقول: إنّ زي المرأة المسلمة يمثل هوية امرأة تفكر بعقلها، فلا تنقاد بصورة عمياء لمعايير المجتمع الذي تعيش فيه، دون تفكير عميق في الحياة ومحاكمة للأمور، ثم تدعو أختها الغربية إلى تبين حقائق الإسلام، عساها أن تغير قناعاتها، فترتاح في ظلّ تعاليمه.

إنه لفارق كبير، بين خطاب يقدم نفسه بهدوء وثقة وقوة، يبين، يشرح، يتهم، يدافع، ثم يدعو إلى الحق ويأمر بالمعروف، وبين خطاب تقليدي لا يقنع أحداً، وربما كرس الفكرة السائدة عن ظلم المرأة المسلمة، وقهرها وتكبيدها بالأغلال، فهو يخدم الخطاب المعادي بدل أن يدحضه[1]!!

مشكلتنا أن كلامنا على كثرته من فوق المنابر، أو في وسائل الإعلام، فقد وزنه فأصبح خفيفاً لا يُلتفت إليه، أو يؤبه به، لأن ما ينقصه هو العلم أحياناً والتقوى أحياناً أخرى، فعلينا أن نحمل كلامنا بشحنات قوية من الورع والإيمان ونثقله بمزيد من العلم والمعرفة، والحجة والبرهان، ليصبح ذا وزن فينصت له الناس.

أما آن لنا أن نريح خطابنا الفقهي، فنضع عن كاهله عبء «قال فلان عن فلان آخر»، و«في القضية نفسها بضعة أوجه»؛ فنعسر المسألة على السائل، بدل أن نجد له حلاً؟.

أكثر المسلمين مخلصون، وفي شوق لتطبيق أحكام دينهم، لكن الأمور تعقدت وصعبت بين شروح كتب الفقه وشروح شروحها، حتى بهت لون القول الأساسي من كثرة التفريعات.

---

(١) انتصار بريطاني لعقل المرأة المسلمة وإرادتها، شابينا بيغوم، جريدة الشرق الأوسط ٢٦ آذار (مارس)، ٢٠٠٥.

إن للكلمة تاريخيتها كما أن لها جغرافيتها، فحتى مدلول الكلمة يختلف بين عصر وآخر، أفلا نستطيع تحقيق المعنى المراد بكلمة معاصِرة، لا تثير استغراب سامعها أو قارئها؟ هل أصبح لكلام الرجال من القداسة ما لكلمات القرآن، فلا يجوز المساس به وبرسمه الأول؟ إلى متى سنظل نتقرب إلى الله في زمن الاختزال، وتقدير قيمة الوقت، بحفظ شرح لمسألة - تختصر في كلمتين- يقع في أكثر من عشر صفحات، ناقلين ما قيل فيها، وما يحتمل أن يقال؟.

إن باب الطهارة من كل كتاب فقه يكاد يستغرق ثلث الكتاب، فقد بلغ باب الطهارة في إحدى أمهات كتب الفقه أكثر من سبع مئة صفحة، على طالب العلم أن يستظهرها لينال شهادة الدكتوراه فيها، ثم يتركها جانباً ليطبق الفقه المعاش. أصبحت تلك الأمهات المؤلفة من عشرات الأجزاء زينة للمكتبات؛ لأنه لا يتسنى لأحد الوقت للبحث عما قيل في مسألة يريدها، ليخرِج من بحثه دون أن يصل إلى الرأي النهائي الذي قيل فيها.

كلّ من أراد أن يعرف شيئاً عن إسلامه بعد النطق بالشهادتين يقال له لا بدّ من دراسة الفقه، فيبدأ بقسم الطهارة الذي هو الباب الأول في كلّ كتاب فقه، ليتوه بين أقسام المياه، بين طاهر بنفسه ومطهر لغيره، كما حدث مع أحد المنتسبين حديثاً إلى الإسلام، الذي أراد التفقه في الدين، وبعد أن قرأ باب الطهارة

بكل فروعه وأقسامه، سأل من حوله: والآن إذا أردت أن أتوضأ ماذا أفعل؟ فأجابوه: تفتح صنبور الماء النقي وتتوضأ، قال لهم: فما فائدة كل ما قرأت إذن؟ قالوا: هذا ما كتبه فقهاؤنا الأقدمون، ومن نحن حتى نزيد أو ننقص عما كتبوه؟ قال: لقد حبس المسلمون إسلامهم العظيم في دورة المياه طيلة قرون، فنجسوه ولم يعرفوا بعد كيف يتطهرون.

أليس في إمكان علمائنا العودة بخطابنا الفقهي والوعظي إلى فقه نبينا الكريم الذي كان يأتيه الأعرابي الجاهل الذي لا يفقه شيئاً، فيعلمه دينه بكلمات سهلة سريعة؟ هل هذا صعب؟

حرية الرأي

إنّ مبدأ حرية الرأي، مطلب ينادي به الجميع، بينما يتجاهل معظم الناس التميز بين حرية الرأي، وحرية فرض الرأي، فإن كان لي الحق أن أعتقد ما أشاء، فهل يكون لي الحق أن أفرض رأيي على من أشاء؟!

إن أعظم آية جاءت في القرآن في تعظيم الله سبحانه في وحدانيته، وقدرته، وقيوميته هي آية الكرسي، وبعدها مباشرة أهدى الحي القيوم للناس أعظم آية في تكريم الإنسان ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ [البقرة: ٢/٢٥٦]. فإذا كان الدين الذي هو قمة الإيمان بالنسبة إلى البشر، وليس فيه إكراه من خالق البشر ومالكهم، فمن البدهي ألا يكون هناك إكراه فيما دون ذلك؛ في الرأي وفي الشعور، ولا فيما تكنه الصدور، لأن ما تكنه الصدور، سرّ بين العبد وربه، لا يطلع عليه أحد إلا هو، وهو الذي يحاسب وحده عليه، وكما أنه لا إكراه في الإيمان، فكذلك لا إكراه على الكفر - فعندما يعرف الإنسان معنى التوحيد، وكلمة السواء، وأنه سبحانه لم يصبَّ البشر في قوالب فكرية جاهزة، بل ترك لهم حرية الاختلاف والاختيار الذي لا يؤدي إلى المخاصمة، قال

تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١/١١٨-١١٩] عندها يعرف معنى حرية الرأي.

كانت طريقة الأنبياء جميعاً في الدعوة إلى الحق والرشد، وتبيين الغي من الرشد هي الحجة والبلاغ المبين، دون إذلال للآخر، ولا سلب لإرادته. إننا للأسف لم ندرك بعد أهمية الإقناع بالحجة والبلاغ المبين، فنحن نظن أن علينا أن نفرض الحق الذي عندنا بالقوة، وصاحب الرأي الآخر يعتقد الشيء نفسه، مع أن الله سبحانه وتعالى لم يعطِ لقوى الخير الممثلة بالأنبياء، ولا لقوى الشر المتمثلة في إبليس وجنده، السلطانَ في فرض الرأي بالقوة؛ فالأنبياء لا يملكون إلا الوعظ والتذكير؛ مع الترغيب والترهيب، والشيطان لا يملك إلا الوسوسة والتزيين، وهذا هو مبدأ حرية الاختيار.

لقد غيب سلطان القوة والجبروت ومبدأ (أنا ربكم الأعلى) الأسلوب الآخر، أسلوب الحوار، حوار الآخر، حوار الحضارات بدلاً من تصارعها، والعالمية بدل العولمة والدخول في السلم كافة بدلاً من مبدأ القاتل أو المقتول، ففي الأرض متسع للجميع، وللحقيقة وجوه أخرى، وزوايا غير الزاوية التي ينظر منها أحدنا.

لا نزال في عالمنا الإسلامي المتخلف للأسف نعيش في عالم

الأشخاص، ولم نرتقِ بعد لندخل في عالم الأفكار، إذ إننا نعطي أحياناً لأقوال بعض الأشخاص من القداسة ما نعطيه لآيات الكتاب، فإذا وثقنا بالقائل لا نراجع قوله، بل نتقبله مسلّمة لا يجوز الخروج من دائرتها، ولا الزيادة عليها، الأمر الذي جعلنا جزراً فكرية معزولة، ضمن منظومات معينة تُشعر من يتبعها أنه سيضيع أو يكفر إذا فكر خارجها، يستوي بذلك المتدينون والعلمانيون، فالمتدين يخشى على أتباعه من الكفر، والعلماني يخشى على مريديه من الإيمان. والخوف على المسلمين ليس من الكفر، بل من ضيق الفكر، فإن ضيق الفكر هو الذي يؤدي إلى الكفر، فقد ظهر في التاريخ الإسلامي كثير من الأفكار الشاذة ذهبت كلها، وبقي الإسلام، لكن العنف الفكري الممارس، مع نفي الآخر، ومصادرة رأيه، والخوف من أحكام الردة والتكفير، والتبديع، والتفسيق، بالإضافة إلى الخيانة والتخوين التي تؤدي كلها إلى القتل المادي أو المعنوي، قد شلت فكر المفكرين، ووأدت إبداع المبدعين، فجعلتهم يعكفون على فكر السلف، يدرسونه ويعيدون إنتاجه، ويخرجونه ثم يدرِّسونه لطلابهم، لا يحيدون عنه قيد أنملة، كأن التفكير الحر، وإعمال العقل، وحرية التعبير كان حلالاً لسلف هذه الأمة، حراماً على خلفها!!

وفي غمرة مناظراتنا الفكرية، وتنابزنا بالألقاب تناسينا الفرق الكبير، بين أن أفرض رأيي بالقوة على أحد، وبين أن أجاهر

بما أراه حقاً دون خوف من أحد، إنّ الرسول ﷺ لم يقدم طلباً ولا عريضة لقريش لتسمح له بإبداء رأيه، كما أنه لم يستعمل العنف ليكره أحداً على الإيمان بما جاء به - إنما كان العنف من جهة الباطل - ومع ذلك فقد عرضت عليه قريش المال والملك في سبيل أن يكف عن إبداء رأيه ويصمت عن الجهر بما جاء به من الحق، فلم يمنعه الترغيب ولا الترهيب عن الجهر بما اقتنع به من الحق. لم يَرِدْ في تاريخ النبوات أن نبياً من الأنبياء، جاء ومعه جيش أو قوة تمهد له لفرض رأيه، ولم يرد في تاريخ الدعوات أن نبياً أكره أحداً على اتباعه، إنما كانت وسيلتهم جميعاً الحجة والبيان، والجهر بالحق، لأن صاحب الحجة والبلاغ المبين إذا وثق من فكره الذي يحمله، فسيكون أكثر ثقة بقبول الآخرين له، من دون فرضه عليهم بالقوة؛ فدعوة الأنبياء والرسل جميعاً جاءت لتحرير الإنسان من كلّ القوى التي تحاول استلابه من جبت أو طاغوت.

إذا بذل أحدنا جهده الواعي في تحصيل فكره وقناعاته بالحق الذي وصل إليه، فعليه عرضه دون خوف من رأي الأكثرية حوله، فليست الأكثرية دائماً على حق، إن الصمت والخوف من إظهار الحق، هو الذي يعطي الفرصة للباطل في الظهور، حتى يخيل للناس أنه حق، وكم من صواب وحق ضاع في غمرة السكوت الجماعي على الباطل.

إن غياب المفاهيم القرآنية عن ساحاتنا الفكرية، جعلتنا نخاف على الحق، ونظن أن الحق والباطل إذا مُنحا الفرصة نفسها، فإن الباطل هو الذي سينتصر!!!

وتبقى إمكانية التواصل متاحة للجميع، على ألا يتمسك أحد بمبدأ ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ لأنه عندما يشعر أي فرد، أن الزاوية التي يرى منها الحقيقة، هي الحقيقة النهائية، وأنه الممثل الوحيد، والناطق الرسمي باسم الإسلام والمسلمين، فعندها يغيب النقد، ويسيطر التقليد، ويبدأ استخدام العنف، ونفي الآخرين باعتبار أنهم ليسوا على شيء. وفي هذا المناخ الفكري المغلق الذي نتنفس هواءه الملوث - ولو أنكرنا ذلك - فإن سجالاتنا الفكرية على الفضائيات دليل ناطق على ذلك، حين يقول أحد كبار العلماء، عن مفكر مثله خالفه في الرأي، على الهواء مباشرة: إنه ما من عاقل يوافق على ما يقوله ذلك المفكر، وإن آراءه مرفوضة عند جماهير العلماء والمثقفين، لأن الأمور قد اختلطت على ذلك المخالف فهو لا يملك التمييز بينها!!.

وهنا لا يبقى مجال للتعددية، ولا لوجود وجوه أخرى للحقيقة، لأن المفكر الذي يعد نفسه المالك الأوحد للحقيقة يقطع على نفسه فرصة التحاور مع الآخرين، أو الاستفادة مما عندهم، لتصاب أفكاره بالعقم المادي والمعنوي، والجمود ثم الموت، وبدل أن يؤدي المفكر دوره في بناء مجتمعه بتبادل الأفكار

البناءة مع سواه من المفكرين، يصبح عقله نعشاً متحركاً لأفكار ميتة، ينوء بحملها، ويبذل عمره وروحه رخيصة في سبيل الدفاع عنها، وقد لا تكون قناعته بها قد بلغت حدّ اليقين العملي، فيتمثلها ويعيشها في واقع تعامله الحياتي، لتجد أن أفكاره ومعتقداته في واد، وسلوكه العملي في واد آخر - خذوا من أقوالهم ولا تأخذوا من أفعالهم!!

إن ما يخرجنا من هذه الدوامة هو اتباع أسلوب جديد في الحوار يقوم على:

١ - احترام الآخر فلا نُسيء إليه، ولا نغتابه ولو خالفنا في رأينا.

٢ - أن نتفق فيما يمكن الاتفاق عليه، ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه.

٣ - ألا يسخر أحد من أحد، ولا يفخر أحد على أحد، حتى لو خالفه هذا الأحد الرأي، فما يدريه أن يكون الآخر خيراً منه.

٤ - أن يكون تنافسنا على الخير والتقوى وما ينفع الناس.

لقد جربنا أسلوب التناحر والتخاصم والتكفير قروناً، وأسلوبَ هذا هو الحق الوحيد، ومن خالفه فهو مرتد يستتاب ثلاثاً، ثم يقتل إذا لم يرجع عن رأيه إلى رأينا. هذا الأسلوب

الذي لم يأتِ إلا بأسوأ النتائج، فسالت دماؤنا ولا تزال تسيل، ونبذل جهودنا في أن يُدخل بعضنا بعضاً النار، ونضيِّقُ رحمة ربنا الواسعة.

لم لا نجرب أسلوب السماء، أسلوب الأنبياء، في الحوار الهادئ، والإقناع بالحجة؟.. وعندها سيربح الجميع ولا يخسر أحد، وندخل في السلم كافة، ويدخل معنا الناس، نعيش جنة ربنا في الأرض، ونطمع في دخول جنته في السماء بإذنه تعالى.

لغتنا العربية

يدور الحديث في أروقتنا الفكرية عن اللغة العربية... لغتنا المقدسة.. لغة القرآن التي ما زالت في انحسار عن ساعات التدريس، وعن التداول على الألسنة من قبل الناطقين بها خجلاً واستهزاء، والتفاخر بالحديث بلغة العصر.. لغة الغالب، على مبدأ ابن خلدون القائل: «إن المغلوب دائماً يقلد الغالب في كلّ أحواله».

هل نرتدي جميعنا السواد، لنجلس في مجالس العزاء، التي تقام في مأتم لغتنا المقدسة - كما يقول المثل الشعبي: نقتل القتيل ونمشي في جنازته - نكثر البكاء والعويل على موت لغتنا الحية، لغة القرآن، لغة تاريخنا العريق، لغة أشعارنا ومعلقاتنا، لسان العرب الذي كتب فيه كل تراثنا العلمي والأدبي، وترجمت إليه كل العلوم حين كنا في أوج حضارتنا، عندما كان مثقفو العالم يفتخرون بإجادتهم العربية كأهلها.

لكننا في غمرة انتكاستنا الحضارية، وأفولنا المعرفي، نميتها معنا، حتى تكاد تصبح من مستحاثات القرون الماضية، ومن

اللغات القديمة التي اندثرت صلاحيتها. فاللغات الحية، ليست مثل الكائنات الحية تموت بانقضاء أجلها، بل تبقى حية ما أمددناها بمقومات الحياة؛ من تداول واستعمال، وإضافة، وترجمة، لكنها قد تموت اغتيالاً بأيدي أبنائها، كما يفعل العرب والمسلمون الأتقياء بلغتهم، نقيم مجالس الرثاء، لنكثر من ذكر محاسنها، وندفنها حية بإخراجها من التداول كعملة فقدت صلاحيتها؛ فهي تارة لا تصلح للغة الأعمال، وطوراً تعجز عن المصطلحات الطبية، وأخرى لا تقبل التكيف مع المعلوماتية والعلوم ما بعد الحديثة، ثم ننادي بالويل والثبور وعظائم الأمور، لمن يكيد لنا ولأمتنا، وللغتنا المقدسة، التي لا يكتمل إسلام المسلم إلا بتعلمها، ليفهم قرآنه ويقيم صلاته، ولا تكتمل عروبة العربي إلا بإتقانها وتمثُّل علومها وآدابها.

(طلب بوش من كونغرسه بحسب ما تورده وكالات الأنباء، مبالغ إضافية لتغيير المناهج في المدارس الابتدائية والثانوية في العالم العربي لتتوافق مع القيم الأميركية)، وبدأت تعاليمه وأوامره تؤتي ثمارها، فإن الأنباء تنهال علينا يوماً بعد يوم، وعاماً إثر عام، عن تعليمات وقرارات بتقليص ساعات التدريس باللغة العربية، وإخراجها من المناهج الدراسية بلداً عربياً بعد آخر.

ويحضرني قول إدوارد سعيد وتعجُّبه من مسارعتنا لتنفيذ ما

يراد بنا بأسرع مما يريدونه لنا!! وأخشى أن نُذْكر في التاريخ بأننا أمة ضحكت من تخاذلها الأمم!!

يتدافع الآباء والأمهات المؤمنون جداً - الملتزمون جداً - المتمسكون بأهداب الدين الحنيف، إلى الوقوف طوابير على أبواب المدارس الحديثة، لتسليم صبيانهم وبناتهم إلى من جعل همه تغيير فطرهم، يبغونها عوجاً، وتعويدهم ليَّ الألسنة ولحن القول عوضاً عن الفصاحة المشهورة. (من البنود التي وضعت لدمقرطة العالم العربي وتحديثه على الطريقة البوشية الكوندرايزية، إضعاف اللغة العربية، والإيحاء إلى أهلها أنها لغة ميتة لا تصلح لدخول العصر - عصر المعلوماتية - والعلوم ما بعد الحديثة، ووضعوا لذلك أمداً زمنياً عشرين عاماً، مدة تكفي لفناء الجيل الذي لا يزال يتقنها، آملين في الأفواج الكبيرة من أبنائنا وبناتنا الذين يتلقون العلم في مدارس تفتخر في الإعلان عن نفسها بأنها تدرس المناهج الأميركية، واللغة الإنكليزية باللهجة الأميركية!! فيتعلم أبناؤنا إلى جانب اللغة والعلوم، مبادئ التسبيح بحمد أسلوب الحياة الأميركية، ويشرّبون على مقاعد الدرس حبها وحبّ كل ما يوصل إلى حبها!!).

من التناقض الذي يصعب تفسيره، أن أميركا وحكامها الذين يُلعنون على المنابر أيام الجمع قد تسلل حبهم تحت

جلودنا، لتسكن داخلنا، قد أُشربنا حبها كما أشرب بنو إسرائيل في قلوبهم العجل، أصبحت أميركا عجل العالم المقدس!!

إن ما تحصل عليه أميركا عن طريق التعليم والاتجاهات التي تنتهجها المدارس الحديثة في أساليب تعليمها يغني أميركا عن جيوش جرارة لخدمة مصالحها في أوطاننا. وورد عن الشاعر الهندي أكبر إله أبادي قوله: «لقد أخطأ فرعون القديم في تقتيل الأبناء واستحياء النساء، ولو علم شيئاً من السياسة الحديثة لافتتح لهؤلاء الذين يريد قتلهم (المدارسَ)، وتوصل بذلك إلى ما يريد، وسمي ناشر العلم والفضيلة»[١]. من المفارقات المبكية التي نعيشها، أن الآباء والأمهات، الأتقياء جداً، يتابعون في المساء كبار الدعاة على الفضائيات يشرحون آيات الكتاب، يبدعون في الحديث عن إعجازه اللغوي والبياني، إلى جانب معجزاته الأخرى - فهو كتاب لا تنقضي عجائبه - يتحدثون عن الكلمة وأخواتها، وما يتفرع عنها، ويشتق من معانيها، فيبكون متأثرين خاشعين، تقشر أبدانهم في حالة من الانسجام الإيماني التام، مستغرقين في تسبيح وتحميد وتهليل، ترفرف أرواحهم وقلوبهم إعجاباً وحباً لدينهم وكتابهم ونبيهم، وفلذةُ كبدهم في

(١) سبيل الدعوة الإسلامية، أمين المصري، طبعة دار الأرقم، الكويت، ١٩٨٠، ص١٣٨.

الحجرة المجاورة يستظهر دروسه التي تعلمه الحياةَ على الطريقة الأميركية، فينطبع في داخله (اللاواعي) أن الولد لن يكون عصرياً ولا معاصراً دون أن يتخذ له (Girl frind) خاصة به، وأن البنت البريئة ذات الفطرة السليمة التي فطرها الله عليها، لن تكون متحضرة من دون (Boy frind) خاص بها، وأن الأهل سيكونون رجعيين جداً، إذا لم يعترفوا بصديقة ابنهم، وصديق ابنتهم!!

أما في الأسحار عندما تقوم الأم المؤمنة التقية - التي نالت لتوها إجازة من أحد كبار شيوخ القراء، تشهد لها أنها أتقنت تلاوة القرآن - وحفظه مع أحكام تجويده تناجي ربها، تطلب منه التوفيق والهداية إلى سواء السبيل، غافلة أو متغافلة أن أبناءها وبناتها خارج البيت أو في زاوية أخرى من زواياه، يسلكون سبلاً أخرى من الإدمان على مشاهدة ما يبث في التلفاز، أو يعرض في دور السينما من مسلسلات وأفلام، تعينهم على استيعاب أصول الحياة على الطريقة الأميركية؛ من ممارسة للعنف بكافة أشكاله، وإدمان للمخدرات بكافة أنواعها، ناهيك عن تأليه الجنس، وجعله الهدف الأسمى للحياة. وقد يصل الأمر إلى عبادة الشيطان «سبعون في المئة من المادة الإعلامية التي تقدمها شاشات العالم، من إنتاج أميركي، سيطرت عليه أموال اليهود ونفوذهم».

وبينَ علمٍ في النهار في معاهد ومدارس حديثة تنسي الجيل لغته وقيمه، ووسائل إعلام وترفيه في الليل، تفسد البقية الباقية من فطرته (وعمالة أجنبية وافدة للخدمة في المنازل، هي آخر ما وصل إلينا من أمراض العولمة، يتشوه اللسان وتفسد الأخلاق...).

بدأنا نحصد ما اقترفناه بأيدينا وأموالنا، قطعان من الشبان والشابات لا يتقنون علماً، ولا يهتدون سبيلاً، غرباء في أوطانهم، شاذون في مظهرهم في لباسهم، وسلوكهم وتسريحة شعرهم، تجد أحدهم يجوب في الشوارع مسطحاً أملس، لا يلوي على شيء، فاقد الشخصية والصفة والصبغة، يتسكعون على أبواب مطاعم الوجبات السريعة، في اختلاط ماجن لا يمت إلى قيمنا ولا إلى أعرافنا بصلة، يظن المرء نفسه عند مرآهم في حي خلفي، من زواريب المدن الأميركية التي تحوي حثالة البشر، وليس في عاصمة عربية مسلمة. المنظر يتكرر ويتشابه في كل المدن والعواصم العربية. لا أدري لماذا لا نأخذ من الغرب إلا وجهه القذر، ونترك وجوهه الأخرى؛ فإلى جانب الشوارع الخلفية التي تقدمها لنا الشاشات العربية، تعلم أبناءنا ما يجري فيها من موبقات، وكأنه ليس للحياة هناك إلا هذه الصورة المحددة، وهذا الوجه القذر، هناك الغرب الحضاري والغرب الفكري؛ أين الجامعات ومراكز التقدم العلمي؟ أين الشباب

والشابات الجادون الذين ينكبون على العلم والعمل، لا يملكون وقتاً لمثل هذه التفاهات؟ هل الأمر مقصود وأنها مؤامرة؟ أم إنّ الإنسان العاطل لا يتعرف إلا على مزبلة الحضارة، ويغمض أعينه عن مكتباتها؟!!

أدى هذا الانفصام الكبير في القيم والأعراف إلى غربة معيشية تمارس في البيوت، الأهل يندبون حظهم وعقوق أبنائهم، وخسران أموالهم وأولادهم بعد أن فات أوان الإصلاح، والأبناء يزدادون بعداً لشعورهم بتخلف الأهل ورجعيتهم، فالابن يخجل من الاعتراف أمام رفاقه أن هذا هو أبوه، الذي يخرج لصلاة الفجر عندما يكون ابنه عائداً من سهرة مع رفاقه. أما البنت، فإنها تتجنب الظهور أمام صديقاتها برفقة أمها المتخلفة التي عادت إلى الاحتشام، والالتزام بلباسها الإسلامي، بعد أن كانت مثلاً في الأناقة. تمضي الأيامُ في ملل وتبرم، ينتظرون قدوم الفرج، حين يغادرون هذا الجو الكئيب، للانطلاق والسفر إلى آفاق الحرية، وإلى رحاب الجنة التي وعدوا بها، إلى كعبة الرقي والحضارة؛ التي انتهى عندها التاريخ حسبما رأى منظرهم الأكاديمي المشهور فوكوياما!!

ألا يحتاج الأمر إلى مختصين في علم النفس والاجتماع، لمعالجة هذا الانفصام الذي يعيشه الأب المؤمن الملتزم لئلا يخسر دينه ودنياه، ماله وولده - على مذبح تعلم اللغة وربما خسر

آخرته أيضاً لأنه خالف أمر ربه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦٦/٦] فبدل أن يقيهم من الموبقات، يسوقهم بيده إلى التهلكة، إلى طريق يفسد عليهم أمر دينهم وآخرتهم، وصحة أجسامهم وعقولهم!!

ألا يملك الأغنياء منا، والتجار الأتقياء، الذين يحجون عاماً ويعتمرون عاماً، أن ينشئوا من نفقة الحج الثاني والعمرات المتتالية - التي لا تؤدى إلا بدرجة خمس نجوم - مدارس وطنية على أعلى مستوى من التقنية الحديثة، والمستويات المتقدمة، تعلم الأبناء إتقان لغتهم الأم، على أيدي ذوي الاختصاص والخبرة، إلى جانب إتقان اللغات الأجنبية؟

أليست المبالغ الطائلة التي يدفعها الآباء طائعين مختارين أقساطاً مرتفعة وعالية جداً للمدارس الحديثة، لقاء تعليم أبنائهم المناهج الأجنبية باللهجة الأميركية (هذه المدارس التي تقام في أرضنا تفتخر بأنها تحرّم في صفوفها وبين أبنائها النطق بالعربية حتى خارج قاعات الدراسة) كافية لإنشاء تلك المدارس الوطنية المنشودة؟

ألا يمكن لمترفينا وأصحاب الأموال الأتقياء منا، أن يعقلنوا قليلاً عواطفهم الدينية، فينشئوا، إلى جانب المساجد الفاخرة، التي يتسابقون إلى بنائها... مدراس فاخرة بأحدث الوسائل التعليمية، التي تعمر قلوب أبنائنا، وبيوتنا، ومساجدنا أرجى

مثوبة عند الله من عمارة مساجد فاخرة لكنها خاوية كادت تصبح لكثرتها مساجد ضرار؟.

إن إخلاصنا الشديد دون صواب وحكمة، أوصلنا إلى هوة الضياع، وربما سيودي بنا إلى إفلاسٍ إيماني ومعرفي، لن تجدي في إصلاحه كلّ دعواتنا المخلصة!!

في غمرة انشغالي واستغراقي في موضوع لغتنا وما آل ويؤول إليه أمرها على يد أبنائها والمتحدثين بها، والمتربصين بها، وقعت يدي على كتاب مترجم من إصدارات عالم المعرفة اسمه (اللغة والاقتصاد) من تأليف فلوريان كولماس، ترجمة د. أحمد عوض، عدد ٢٦٣، حملني على التساؤل عن العلاقة بين اللغة والاقتصاد؟ فجاءني الجواب في طيات الكتاب القيم مما زادني ألماً وحسرة على ما نرتكبه في حق لغتنا واستقلالنا واقتصادنا الوطني.

يقول فيه: إن النقود واللغة مرتبطان أحدهما بالآخر؛ لقيامهما على أسس مشتركة، فثروة المعرفة الإنسانية كلها تقوم على تبادل الكلمات... ومن ناحية أخرى فإن كنوز الحياة - المدنية والاجتماعية - ترتبط بالنقود، بوصفها معيارها العام، فكل من النقود واللغة تدين بوجودها للاعتماد المتبادل بين الناس[1].

---

(١) اللغة والاقتصاد، عالم المعرفة، ص ٣٣، عدد ٢٦٣.

وددت لو أني أنقل الكتاب في كلّ صفحاته لأهميته، لكن خشيتي من ملل القارئ جعلتني أكتفي بمقتطفات؛ بعضُها بحذافيرها، وبعضها الآخر بتصرف مني واختصار لتنسجم مع كلماتي وحديثي، لتبين أهمية اللغة بالنسبة إلى استقلال الشعوب المادي والنفسي ولاستمرار حياتها.

يؤكد الكاتب في أغلب صفحات كتابه، على العلاقة الوثيقة بين اللغة والعملة، فالبلد لا يعتبر مستقلاً إلا إذا كانت له عملته الوطنية، ولغته الأم. إن الاندفاع إلى الاستقلال السياسي، اقترن دائماً بالرغبة في وجود عملة ولغة وطنيتين (في أوّل مؤتمر للمستعمرات التي تشكلت منها الولايات المتحدة الأميركية نوقشت مسألة العملة، فكان من الوجوب أن تحل عملة خاصة بالجمهورية الفتية محل الجنيهات والبنسات الإنكليزية، فاقترح توماس جفرسون بدلاً عنها الدولار وأجزاءه) كما صرح وبستر في معجمه الأول الذي وضعه عام [١٨٠٦ - CP. XXIIF] أمرك به اللغة الإنكليزية كما فعلوا بالعملة بأنه: «بعد خمسين عاماً من الآن سوف يتحدث الإنكليزية الأميركية أناس أكثر مما يتحدثون لهجات اللغة الأخرى، أما خلال مئة وثلاثين عاماً فسوف يتحدث بها أناس أكثر مما يتحدثون بأي لغة أخرى على الأرض بما في ذلك اللغة الصينية»[١].

(١) اللغة والاقتصاد، ص ٦٢، مصدر سابق.

لقد تحقق أكثر مما كان يحلم به وبستر، إذ سيطرت لغة أميركا ودولارها على العالم وأزاحت اللغات الوطنية، والعملات المحلية. إن اللغات تسلك سلوك السلع الأخرى في السوق، حيث يؤدي الطلب المتنامي إلى زيادة المبيعات، وارتفاع سعر السوق، أما سوق اللغة فهو بعكس السلع المادية، تزداد ثراء بالإنفاق، فترتفع قيمتها مع كل متحدث يكسبها أو تكسبه. كلما تعلم الناس لغة أصبحت مفيدة، وكلما كانت مفيدة تعلمها الناس أكثر، ليست الخصائص الكامنة في اللغة هي المسؤولة عن انتشارها، بل في قيمتها الاستعمالية الكبيرة. إن اللغة الأميركية لم تصل إلى مكانتها المسيطرة بشكل طبيعي؛ فما دامت المناهج في مدارس اللغات الأجنبية في كل دولة، عبارة عن مسألة سياسية فلا وجود لسوق حرة للغات يحكمها قانون العرض والطلب.

عندما تنبأ وبستر للغته أن تعم العالم، لم يكن يعلم الغيب، بل كان يعرف أنها لن تقوم بذلك بمقوماتها وقوتها الذاتية، فقد قامت في أواخر العشرينات والثلاثينات من القرن الماضي في الولايات المتحدة منافسة تجارية أطلق عليها حرب المعاجم، حين أصدر وبستر طبعته المنقحة من معجمه للعام (١٨٢٨) التي تحوي سبعين ألف مادة ليعطي تجسيداً لدعواه بالاستقلال اللغوي للجمهورية الفتية عن إنكلترة، وتقديم مصطلحات إملائية جديدة، جعلت من الصعب بمكان على الناشرين

البريطانيين أن يزودوا السوق الأميركية أو يسيطروا عليها[١].

ثم تولت الشركات الأميركية العملاقة عابرة القارات تسويق لغة الهاي باي، كما تروج للكولا والهامبورجر!!

إن اللغة الأولى لغة مهمة وذات قيمة لكل فرد، وهي في العادة لغة البيئة التي يولد المرء وينشأ فيها، والتي لها أهميتها الحيوية لتطوره العقلي وجعله كائناً اجتماعياً. يتم صيانة اللغة بنقلها عادة إلى الأجيال القادمة من المتحدثين بها، بالأنماط التي تكفل الحفاظ عليها، وتطويعها الموجه للاحتياجات الاتصالية المتغيرة للجماعة اللغوية بشكل يكفل استمرار لغة مشتركة ملائمة لكل الأغراض. من المتعارف عليه أن التلاميذ يتعلمون لغة أمهم بدءاً بالصف الأول الابتدائي، حتى آخر المرحلة الثانوية. (فهل في العالم عاقل يفعل ما نفعله نحن، حين نبدأ تعليم أبنائنا اللغات الأجنبية لننسيهم لغتهم الأم)؟!

من المسلم به أنه ليس الهدف الوحيد لتعليم اللغة الأم، تعلم حقائقها اللغوية، فإن تعليم النحو والإعراب يأتي جزءاً من التعليم إلى جانب التاريخ والجغرافيا والآداب.

إن المرء ليتساءل عندما يكون التدريس كله حسب المناهج الأميركية وبلغتها، ترى هل يعلمون أطفالنا وأبناءنا، تاريخنا أم

(١) اللغة والاقتصاد، ص ١١٥، مصدر سابق.

تاريخهم؟ تضاريسنا أم تضاريسهم؟ آدابنا أم آدابهم؟ عندها يصبح تاريخ فلسطين الأرض المغتصبة في تاريخنا أرضاً مهجورة عمرها اليهود وسكنوها، لكن جيرانهم العرب المتوحشين يريدون طردهم منها وتخريبها!! ألم نصبح أمة تعجب من تفريطها الأمم؟

إنّ تاريخ اللغة والأدب المكتوب يمثلان عنصرين حيويين من عناصر البرنامج التعليمي، لا غنى عنهما في تكوين المقدرة اللغوية للفرد وحمايتها، وهي مقدرة ثابتة وخلاّقة معاً، فمن خلال التعامل مع اللغة بمعناها المحدد، وكموضوعات أدبية فإن تعليم اللغة الأم يعد استثماراً عاماً في اللغة[١].

اللغات الحية بحاجة مستمرة للغذاء عن طريق الابتكار المعجمي الناشئ عن تداول الكلمات واستهلاكها، الذي يطلق عليه مصطلح انخفاض قيمة المفردات منتهية الصلاحية - وكما في المفردات فكذلك في الأفكار أفكارٌ انتهت صلاحيتها - تستمر الحاجة إلى الكشف والاختراع، وتبني معان وأفكار جديدة تحتاج إلى تسميات.

إن الاستراتيجيات الرئيسية للطلب المعجمي الناشئ هي الاشتقاق، والاقتراض وهو ذو أهمية خاصة، لأنه يلقي الضوء

(١) اللغة والاقتصاد، ص ١٣٨، بتصرف، مصدر سابق.

على نقطة، يصبح عندها ترابط الاقتصاد الخارجي والاقتصاد الداخلي ترابطاً واضحاً، فالاقتراض يأتي عن طريق المعاجم اللغوية، وليس عن طريق الاقتراض الفردي؛ لأن الكلمات المقترضة إفرادياً تفسد نقاء اللغة المقترِضة، فهي لا تنتهك نبلها فحسب، بل تعرض فائدتها للخطر، فإذا لم تعمل معاجمنا على توليد الألفاظ، وظلت اللغة تقترض ولا تدفع، فإنها ستكون مجبرة على إشهار الإفلاس؛ فالاقتراض في اللغة كما في الاقتصاد يراكم الديون حتى تعجز الدولة المقترِضة عن سدادها، مما يضطرها إلى الخضوع لشروط المقرِض.

إنّ اللغات الحية مثلها مثل الدول القوية اقتصادياً، فهي تُقرِض وتَقترِض، ومن خلال التبادل يتم النماء والإثراء(١).

اللغةُ مرآة العقل، فاللُّغة عظيمة الرقي تعكس الإنجازات الفكرية لمتكلميها، وتعززها(٢) عندما يدور البحث في تحديث مجتمع ما والنهوض به، يترك ذلك آثاراً على اللغة لا بوصفها رصيداً ثقافياً فحسب، بل بوصفها واقعاً اجتماعياً ذا منافع اقتصادية وسياسية. أيضاً، فاللغة زمن حركات التحرر في فترة التخلص من الاستعمار، كانت موضوعاً مهماً ظلّ مدرجاً على

---

(١) اللغة والاقتصاد، ص ٣٣٠، مصدر سابق.

(٢) اللغة والاقتصاد، ص ٦٨ - ٦٩، مصدر سابق.

جدول أعمال الدول المستقلة، فهي - بالإضافة إلى كونها جزءاً من الخطاب السياسي - أداة، ورمزٌ، وحافزٌ للقومية، وهي كذلك ذات جوانب اقتصادية.

قبل استقلال الهند بسنوات قليلة، كان غاندي يردّد «علينا أن نفكر في الوقت والجهد اللذين بذلهما شبابنا في تعلم اللغة الإنكليزية، كما لو كانت لغة أم لنا، وعلينا أن نحسب بعملية حسابية بسيطة عدد السنوات، ومقدار الجهد، اللذين يضيعان على الأمة». اعتبر غاندي اليابان نموذجاً يحتذى، لأنها على العكس من الهند لم تستعمل لغة أجنبية وسيلة للتعليم، وبدلاً من ذلك فإنها تترجم كل ما ينتجه الغرب من العلوم والمعارف إلى لغتها الأم، وبهذا اقتصد اليابانيون في جهدهم ونفقاتهم، وأغنوا الثقافة اليابانية بالفكر والمعرفة اللذين لا ينتجهما إلا الغرب وحده، فهم حريصون على ترجمة كل ما هو جدير بأن يؤخذ من الغرب إلى اللغة اليابانية، لأن المعرفة المتحصل عليها عن طريق الترجمة تغدو ملكية خاصة للغة المترجم إليها.

إن التنمية الاقتصادية كما يقول الخبراء، مرتبطة بالتنمية اللغوية، فكما توضع خطط للتنمية الاجتماعية الاقتصادية، كذلك توضع خطط للتنمية اللغوية؛ فاللغة أداة إنتاج، ليس فقط بالنسبة إلى الأفراد الذين يتعاملون بها مهنياً، لكنها كذلك للمجتمع كله، وهذا يظهر بوضوح في الوظيفة المهمة التي تقوم

بها اللغة في المجتمع الحديث، فاللغة مشروع استثمار بالمعنى الحرفي للكلمة - أتمنى أن يتنبه المستثمرون عندنا لهذا المشروع المربح، فالمعروف أن لدى تجارنا حسّاً استثمارياً جيداً - بل هي من أهم الاستثمارات التي تساهم في الانتفاع اللغوي؛ تصنيف معاجم للاستعمال العام، معاجم مصطلحات، برامج معالجة النصوص، ترجمة آلية، ذكاء صناعي، وبشكل خاص ومحدد إنشاء نظم معلومات، بنوك معلومات، تحسين الاتصال بين الإنسان والآلة بتطويع لغة الحاسوب للغات الإنسانية(١).

هناك لغات طُوِّعت وأصبحت أكثر قوة من غيرها نتيجة ظروف تاريخية، واجتماعية، واقتصادية، وربما سياسية أيضاً. إن جوهر اللغة يُختزل عندئذ إلى مجرد آلة في الصراع، وليس وسيلة لإعطاء صورة وتعبير عن العقل الإنساني(٢).

بينما يتنافس الناس في العالم على الاعتزاز بلغاتهم الأم - وإن لم يكن لهم لغة أم اصطنعوا لأنفسهم لغة، كما في اللغة الإنكليزية الأميركية - نغتال نحن لغتنا الحية بأيدينا. غاندي يحض قومه على الاقتداء باليابانيين، في إتقان لغتهم الأم وإثرائها، بنقل العلوم الحديثة إليها عن طريق الترجمة. ويكون

(١) عالم المعرفة، مصدر سابق، ص ٩٥.

(٢) عالم المعرفة، مصدر سابق، ص ٢٦٣.

إنتاج المطبوعات والكتب المدرسية للسوق الإسرائيلية الذي يظهر بوضوح أن اللغة العبرية (لغة الأقلية غير المتداولة ولا المعروفة عالمياً حتى كادت تكون لغة ميتة) قد أحياها أهلوها لتحقق متطلبات اللغات العالمية، فمن بين (١١٤٧) عنواناً نشر في عام ٨٦/ ٨٧ في إسرائيل - وهي أكثر الأمم نشراً للكتب نسبة إلى عدد السكان - فإن ٨٤٪ من هذه العناوين كتب أصلاً بالعبرية، و ١٦٪ منها فقط كان مترجماً[١].

يحض الملك الحسن الثاني ملك المغرب الراحل قومه على التوجه إلى تعلم اللغات الأجنبية، فيقول في حديث له: بخصوص نظامنا التعليمي، يجب أن ننظم ثقافتنا وتعليمنا حسب ما هو ضروري، وأن نصلح ما هو واجب الإصلاح من أجل استعمال أداة قادرة على تشكيل أولادنا الذين يأملون بفضلها أن يصبحوا مواطنين في بلادهم التي لا تتكلم العربية [ببركات الاستعمار الإفرنسي طبعاً] فنحن نعيش في قارة تتكلم الإفرنسية والإنكليزية[٢].

لقد تم للملك الراحل ما أراد، فالأدباء والكتاب المغاربة يعبّرون عن أفكارهم وآدابهم بالفرنسية ثم تترجم إلى العربية (ألا

(١) عالم المعرفة، مصدر سابق، ص ٩٢.

(٢) عالم المعرفة، مصدر سابق، ص ٧٠.

تؤدي عجمة اللسان إلى عجمة القلب؟!). كنت أستمع إلى محاضرة في مكتبتنا الوطنية، يلقيها أحد كبار الباحثين المغاربة المشهود له بطول الباع في دراسة التراث ونقده، استشهد بقول مأثور، ثم أضاف معتذراً أنه لا يستطيع أن يفرق إن كان ما قاله آية من القرآن أم حديثاً شريفاً أم مجرد قول مأثور!!

إن أول ما تفرضه الدول الغالبة على الأمة المغلوبة عملتها ولغتها، وفي المراحل المتقدمة تفرض ثقافتها وأنماط معيشتها.

لا يعني اهتمامنا بلغتنا الأم، وتلقينها أطفالنا منذ الطفولة الأولى، انغلاقَنا وإسدال الستائر على عقولنا وألسنتنا، بل مجرد جعلها قاعدة معرفية أساسية كما يفعل الناس بلغاتهم، ثم الانطلاق منها إلى إتقان ما نشاء من لغات العالم المتداولة، فكل لغة جديدة يكتسبها المتعلم تشكل نافذة يطل منها على العوالم والعلوم الأخرى.. وفي غمرة إحساسنا بتدني المستوى العلمي والتعليمي في مدارسنا وجامعاتنا وتراجعه ألقينا عبء المسؤولية على لغتنا، محملين إياها وزر تخلفنا وتراجعنا الحضاري والتعليمي، متغافلين عن أن العلم تراجع على كافة المستويات حتى على مستوى لغتنا الأم، فأصبح أبناؤنا يتخرجون في جامعاتنا، لا يتقنون التعبير عما في أنفسهم لا في لغتهم الأم، ولا في غيرها من اللغات المستوردة. فالإصلاح يكون بمراجعة وسائل التعليم وأجهزته، وزيادة دروس اللغة العربية، لتنشئة

أجيالنا على القراءة والنطق السليم، حتى يتقنوا لغتهم، لغة آبائهم وقرآنهم، وتعاليمِ دينهم التي لا تقبل صلواتهم إلا بها، لا بتقليص ساعات تدريسها وإخراجها رويداً رويداً من التداول، ثم إقامة مجالس العزاء، والبكاء على أطلالها!!

حتى لا يذهب كلامي هباء، ويكون نقداً في الهواء، دون تحديد هدف عملي ممكن الشروع فيه وتبنيه، أقترح، كمشروع عملي ممكن، على أخواتي النساء المؤمنات اللواتي ألحظ منهن الحرص على لغتنا المقدسة كلما طرح موضوعها، وأستمع إلى شكواهن وأساهن لما يحصل، أقترح أن توفر كلٌّ منا مبلغاً زهيداً نقتطعه من كمالياتنا، التي تثقل كاهل بيوتنا وجيوبنا، أو أن يؤدي الشعور بأهمية الأمر، أن تستغني إحدانا عن إحدى سواراتها الثمينة، لنبدأ بإنشاء مدرسة أنموذجية تجيد تعليم اللغة العربية وغيرها من اللغات على أيدي كبار المعلمين المختصين، ثم يكبر بنا المشروع، ليصبح مدارس. ربما يكون مشروعاً ربحياً يغطي نفقاته.. أو صدقة جارية وعلماً ينتفع به أبناؤنا في الحياة، وندخر حسناته لتنفعنا بعد الممات... هل هذا حلم مستحيل التنفيذ؟

يسألونك عن المرأة

الحديث عن المرأة ذو شجون، فقد مضى على المسلمين حين طويل من الدهر كان فيه الحديث عن المرأة من الممنوعات التي لا يجوز الخوض فيها إلا في أضيق الحدود، لها أبواب ثابتة في زاوية من زوايا الفقه، يسمونه فقه النساء، يتولى فيه رجال شداد تفقيه كل جوانب حياتها، حتى لا يدعون لها نسمة من الحرية، يرسمون لها كيفية طاعة أبيها أو أخيها أو أي ولي لأمرها، حتى يسلمها إلى زوجها، بعد أن يفرضوا عليها الطاعة المطلقة له، ووجوب تلبية رغباته مهما شذت، جاعلين إيمانها وكفرها مرتبطين بمزاجه، فهو يملك إدخالها الجنة إن رضي عنها، ويصليها نار جهنم إن شاء أو غضب!!

يرسمون لها بإسهاب كيفية طهارتها من حيضها ونفاسها، وشؤون وضوئها وصلاتها، وكل أمور عبادتها - أما النساء فيفعلن كذا وكذا - كأن لها صلاة وعبادة مختلفة عن عبادة الرجل!! أما عن مشاركتها في الحياة العامة فهي من المحرمات التي لا يليق بالمؤمنة الفاضلة الخوض فيها.

بعد أن تردى حالنا إلى الدرك الذي وصلنا إليه، وأصبحنا

كالمريض الذي استفحل مرضه، فأخذ أطباؤه يبحثون عميقاً في قصته المرضية لتشخيص دائه، فقد تبين لكل ذي لب، أن أهم أسباب تخلفنا الذي نحاول تجاهله والتكتم عليه، هو الوضع المأساوي والمزري الذي تردى إليه أمر المرأة، فهي جاهلة متخلفة [نسبة الأمية في عالمنا أكبر النسب في العالم، ونصيب النساء منها النصيب الأوفر]، لن نتحدث طبعاً عن بعض الوزيرات اللواتي ترصّع بأسمائهن الوزاراتُ العربية جيدها، لتظهر أمام الآخرين أنها بخير، وأن المرأة وصلت فيها إلى أعلى المراتب، ولم تبقَ إلا الرئاسة الأولى التي يطالب لها البعض فيها؛ إنما يجرنا الحديث إلى المرأة المنسية المهمشة التي لا يقيم لها أقرب الرجال إليها وزناً، حتى باتت لا تشعر أن لها أي وزن أو قيمة.

تعودنا الهروب من مواجهة واقعنا المؤلم، وتجاهل مشاكلنا، لعلّ الهروب يحلها أو أنها تحل بمرور الزمن، لكن مرور الزمن لا يزيد الأمر إلا سوءاً وتعقيداً. إن نظرة تاريخية وموضوعية إلى وضع المرأة المسلمة، تشير إلى أن عزلها وتهميش دورها، وإبعادها عن المساهمة الفعالة في أنشطة الحياة العامة، جعلها عالة على أسرتها ومجتمعها، مستهلكة تثقل كاهل زوجها وميزانية وطنها بسفه إنفاقها، مما أوصل المجتمعات الإسلامية إلى الحالة التي صارت إليها، وإلى مرحلة من الاغتراب الثقافي، تثقل واقعنا بتناقضاتها. قُسم النساء إلى قسمين: امرأة تقليدية تغلق أبواب نفسها ضمن منظومة معرفية تتحكم بها كافة الأعراف

القبلية تحت ستار الدين. وأخرى انطلقت إلى آفاق عالم مادي ألغى المقدسات والغائيات الأخلاقية، ثم ألغى دور الأسرة الفاعل في التربية القويمة والبناء السوي، فالمرأة هي التي تبني الإنسان وتصنع المجتمع، لكن الأَمَة المستعبدة للقيم الغربية المستوردة التي تدعوها إلى الانطلاق والتحرر من كلّ الثوابت، وتعلمها التمحور حول ذاتها تتعبد في محراب جمالها وأناقتها، ضائعة بين دور الأزياء ومراكز التجميل والتخسيس. وأخرى استُعبدت بمرويات تكبل حياتها وتعيق حركتها وتكرس عزلتها، مما جعلها خائفة من كلّ شيء، ومن لا شيء، لا هذه ولا تلك تملك بناء إنسان حرٍّ يدرك معنى الاستخلاف وعمارة الأرض، ويعمل على تحقيق ذاته وإثبات قدرة الله فيه، وبين سلبية هذه وإهمال تلك، ضاعت أجيال، لا انتماء لها ولا لون، جيل محايد لا تهمه قضايا أمته المصيرية، ولا المآسي التي تحصل حوله، بل يهمه الـ(ستار أكاديمي) ولمن سيدلي بصوته من المطربين أو المطربات، وتبادل الرسائل التافهة مع من يشابهه في الفراغ والسطحية على الفضائيات و(الموبايلات). وآخر أسلمَ نفسه لشيوخ التكفير والخروج، ثائر على نفسه، وعلى أهله ومجتمعه، وعلى كلّ من حوله، ملأ الدنيا عنفاً وخروجاً، فأعطى أسوأ صورة عن النمط الذي يخرجه الإسلام، حتى لقد أصبح مرأى شابٍ ملتحٍ يوحي بأنه قنبلة موقوتة توشك على الانفجار.

هذا التواطؤ السكوتي على إبعاد المرأة عن مسرح الحياة، أدى إلى أن يقضى في شؤونها ويقرر لها وهي غائبة، وإن هي حضرت فإنها لا تستشار. إنّ التراجع الحضاري، والانتكاس المعرفي انعكس بكل سلبياته على المرأة، فلم تعد فاعلة للأحداث ولا منفعلة بما يدور حولها من عظائم الأمور، متلهية بتوافهها، كما قال الشاعر قديماً:

كتب القتل والقتال علينا وعلى الغانيات جرُّ الذيول

ومن يتابع شيئاً من عروض الأزياء على الفضائيات يرَ العجب العجاب؟ من الذيول التي تجر، والأموال التي تهدر. (سئل أحد كبار مصمِّمي الأزياء العالميين، لماذا تأتي نماذجه بأشكال غريبة قد تسيء إلى شكل المرأة أكثر من أن تظهر جمالها؟ فأجاب: إن المرأة الحديثة مبهورة بالغرابة والخروج على المألوف، وكلما كانت (موديلاتي) أشد غرابة وشذوذاً، كان إقبال النساء عليها أكبر).

قديماً قال أحد الحكماء: إن المجتمع الذي يبلغ فيه الرجال والنساء غاية الكمال تتولى فيه النساء رسالة الهداية عن طريق التربية والتوجيه، أما في المجتمعات المتخلفة فهن يعانين من الظلم، فيصبحن أداة للفساد والإفساد (الفيلسوف رسكن)[1].

---

(١) عن مقالة لعباس محمود العقاد في الرسالة، ٣١ مايس ١٩٤٣، في كتاب ردود وحدود، دار الكتاب الحديث - الكويت، دون تاريخ.

ترسخ ذلك الحال السيئ للمرأة في أذهان المسلمين، حتى بات ديناً يُتقرب به إلى الله. وأصبح للمرويات التوراتية التي تحط من شأن المرأة التي تسللت إلى فقهنا عن طريق مسلمة أهل الكتاب، وللموضوعات التي نشأت في ظلّ التراجع الحضاري، التي تكرس عزلة المرأة مع مرور الزمن، التي يتم تداولها فقيهاً نقلاً عن فقيه، دون البحث في أصلها، ولا صحتها من القداسة، بحيث لا يرد على خاطر مردديها التفتيش عن صحة متونها، ولا صدق أسانيدها. هذه العزلة أدت إلى ضعف شخصية المرأة المسلمة فأعاق تطورها، وقيّد حركتها. ومن تداعيات تلك العزلة أيضاً أنها أدت إلى نوع من الخمول الثقافي، نشأ لدى المرأة، فالثقافة والفكر، لا يزدهران إلا في أجواء الحوار والنقاش والمطارحات، وهذه أجواء لا تتوافر إلا للرجل الذي تتاح له فرص التنمية والتعبير، بينما كل ما يتاح للمرأة هو (مكان مخصص للنساء)! وإذا كان المكان غرفة معزولة لا ترى فيها المرأة إلا الجدران؛ صوتاً بلا صورة، فإنها تصاب بالملل حيث لا تفاعل ولا مشاركة، وتبقى تحت رحمة تكنولوجيا الميكروفونات[١] التي تتعطل لأي سبب من الأسباب، مما

(١) يحدث في مصليات النساء المعزولة تماماً عن المسجد أن تتعطل الميكروفونات في أثناء الصلاة فتقع النساء في ورطة!! فيسجدن حين الركوع، ويركعن حين السجود!! فكيف يتمكنّ من حُسن الائتمام؟ وهل كان هذا هو الحال في عصر الرسالة؟!

يؤدي إلى عزوفها ويُضعف رغبتها في الحضور، فَتُؤْثر عليها جلسات السمر المترفة، ثم بعد ذلك يشكون من سطحية المرأة، أليس في هذه الممارسة، مبالغة في التحفظ ليست مستمدة من كتاب الله ولا من سنة رسوله[1]؟!

عندما أخذت قضايا المرأة تطرح بخجل على ساحاتنا الفكرية، ومن خلال منابرنا الفضائية لم يكن ذلك بدافع ذاتي، ولا بشعور من ضرورة رفع الغبن عن المرأة، وإنما كان ذلك إثر ضغوط هائلة ممن يتربصون بأمتنا الدوائر، حيث وجدوا أن باب المرأة من أسهل الأبواب التي تمكنهم من توجيه أصابع اتهامهم إلى الإسلام وتشريعاته - من خلال مشاهدتهم لأحوال المرأة المسلمة - فزعموا أن هذه التشريعات ما وضعت إلا لتقييد حرية المرأة واستعباد الرجل لها، وأن لا سبيل لها لاسترداد تلك الحرية والحقوق المهضومة إلا باتباع سبلهم الملتوية، تسبح بحمد تحررهم، وتقدس تقدمهم وانطلاقهم.

وهنا لا بدّ من سؤال: هل يأتي الخطاب الخاص بالمرأة المسلمة على مستوى التحديات التي نتعرض لها؟ أو على مستوى العصر الذي نعيشه، حيث لم يبقَ في مقدور مجتمع ما إغلاق أبوابه، وإسدال ستائره، لعزله وإخفاء ما يجري خلف الستائر والأبواب!!

---

(١) مسلمة على أعتاب القرن، تأليف كواكب عبد الرحمن الملحم، الطبعة الأولى ١٩٩٨، ص ٤٩ - ٥٠، بتصرف.

كثيراً ما يردد شيوخنا الأكارم التغني بما أعطاه الإسلام للمرأة من حقوق وامتيازات بالقياس إلى ما كانت عليه في عصور الديانات السالفة؛ حين كان الشك في إنسانيتها قائماً، ثم عقدوا عزم اعتقادهم على أنها كائن أدنى من الرجل، وأرفع من الحيوان، فهي في منزلة بين المنزلتين، خلقت لخدمة الرجال وإشباع رغباتهم، هكذا كان حالها في دنيا الفلسفة القديمة، أما في جمهورية أفلاطون الفاضلة فلم يكن حالها أفضل، فقد جعلها مشاعاً للرجال تسكن في حظائر جماعية، بعيداً عن عالم الفكر والعلم، كذلك كان حالها على أسوأ حال في عصور الظلام المسيحية الوسطى، حيث كانت ترهن وتباع، لسداد دين في قمار، كما ذكر العقاد في كتابه (المرأة في القرآن)، وهو يعدد ويفند حال المرأة السيئ قبل الإسلام، وفي عهود الجاهلية؛ ومن الحديث عن ماضي المرأة المشرق في صدر الإسلام، ينتقل الكاتب أو المتحدث المعاصر مباشرة إلى انتقاد حال المرأة الغربية المعاصرة، في شقائها وامتهان إنسانيتها على أعتاب جسدها وأنوثتها، رغم ما يتشدقون به عن حقوق المرأة التي زعموا أنها حصلت عليها.

وتبقى المقارنة مستحيلة، وضائعة في الفضاء، بين تشريع سماوي لا يأتيه الباطل، لكنه محجوب عن الممارسة بسوء التطبيق، وبين قوانين بشرية تخطئ حيناً وتصيب أحياناً أخرى.

وبين ماضينا الناصع، وحاضرهم السيئ، ينسى حال مسلمة الحاضر، فلا يبحث في سوء تطبيق حقوقها التي منحها إياها ربها، ومارسها وطبقها رسولها - عليه أفضل الصلاة والسلام - ممارسة عملية على أرض الحياة وواقعها.

إذا كان الإسلام قد أعطى المرأة ما أعطى، فمن الذي يزعم أن له الحق أن يمنعها أو يقيد ما أعطاها ربها؟ تفتن المسلمة عن دينها، أو تقضي حياتها في حيرة ضائعة. يزين لها القول، أنه ما دام الإسلام قد ضمن لها حقوقها، فعليها أن تغض الطرف عن واقعها المرّ الذي تحياه يوماً بعد يوم، فهنا جور على ميراثها وتجيير لحقوقها لمصلحة (الذكر) حامي الديار، وهناك ظلم وإهانة من زوج أو أب أو أخ، يحدث ذلك كله تحت مظلة الإسلام، وبادعاء أنه أمر الله ورسوله الذي عليها أن ترضى به، والله ورسوله ودينه براء من تلك الممارسات.

يذكر الشيخ محمد الغزالي في مقدمة كتابه عن المرأة بين (التقاليد الراكدة والوافدة) في معرض استنكاره للممارسات الخاطئة والمجحفة في حق المرأة، التي حاربها طيلة حياته رحمه الله، أن فتاة يافعة سألت أمها بعد عودتها من حضور درس متشدد في الدين: ألا يمكن يا أمي أن تجدي لنا ديناً يكون أرفق بالمرأة من دين الإسلام؟!

زادت تلك التطبيقات الخاطئة، البعيدة عن روح التشريع

وعدله، في حيرة المسلمة المعاصرة، فهناك من يقنعها ويرضّيها بالصبر على حالها لتنال السلامة الأخروية غير عابئة بما تلاقيه من قهر في دنياها، ومن يغريها عن طريق الجمعيات النسوية والجندر، بأنها عبارة عن باقة ورد جميلة لا رائحة لها، ولا لون، يجب أن توضع - بحجة المساواة -، على كلّ طاولة في مكتب، وفي كل دائرة، أكانت أهلاً لتلك المسؤولية أم لم تكن.

وبين هذه وتلك تقف المؤمنة التي تحرص على رضى ربها، كما تسعى لتعيش يومها في ظلّ تعاليم دينها وأحكامه الصحيحة، فهل كتب عليها أن تنسحب من دينها، أو من دنياها؟.

قد أتعب المسلمة هذا الحال وأورثها ارتباكاً حياتياً ومجتمعياً، فهي لا ترتاح مطمئنة في دين ولا دنيا.

سألتني إحداهن مرة: هل كل ما ورد في السيرة النبوية صحيح؟ قلت: لا أعتقد أن نبياً من الأنبياء، ولا عظيماً من العظماء، ولا كائناً من كان، قد وثقت سيرته، كما وثق المسلمون سيرة نبيهم، مندفعين بالحب والأمانة التاريخية، فلم الشك؟ أجابت حائرة: لأني قرأت في السيرة خبراً لم يحتمله عقلي!! فهل من المعقول أن تجير ابنة رسول الله ﷺ زوجها المشرك دون أن تستأذن أباها؟ فيسمعه الناس يقول على المنبر: إن هذا الخبر ما علمته إلا الآن، إن ابنتي قد أجارت أبا العاص، قلت: نعم. خبر ورد في السيرة فما وجه الغرابة الذي

جعلك تستنكرينه؟ قالت: لأنه من غير المعقول، أو لعله من المستحيل، أن تجرؤ مسلمة على الانفراد بأمر خطير كهذا، دون الرجوع إلى أولياء أمرها بالتسلسل، فكيف وولي أمرها وأبوها هو رسول الله؟! فكيف بلغت المسلمة هذا الاستقلال في رأيها، وجرأة اتخاذ قرارها؟

لكن تلك الفترة الذهبية من صدر الإسلام، التي ننتشي بذكرها، لا تزيد مسلمة اليوم إلا تحسراً على حالها وما آل إليه أمرها.

كانت مسلمة الصحوة في العقدين أو الثلاثة الماضية، قد أسلمت أمرها للفقهاء، يديرونه من وراء حجاب، فأصبح الرجل نائباً عن المرأة في كلّ شيء، فهو من ينظر لها، ويرسم خطاها، ويكتب نيابة عنها، وهو من يتحدث عنها ويقوم مقامها بالحفلات الرسمية التي تفتتح وتختم أنشطتها. كانت هذه إحدى أبرز مشكلات العمل الإسلامي في المجال النسوي التي نبه إليها الدكتور يوسف القرضاوي بقوله: «إن الرجال هم الذين يقودونه ويوجهونه ويحرصون على أن يظل زمامه بأيديهم، فلا يدعون الفرصة للزهرات أن تتفتح ولا للقيادات أن تبرز، لأنهم يفرضون أنفسهم فرضاً حتى على الاجتماعات النسوية مستغلين حياء الفتيات المسلمات الملتزمات، فيكتمون أنفاسهن، ولا يتيحون لهن قيادة أمورهن بأنفسهن، فتبرز منهن مواهب يفرزها

العمل، وتعمرها الحركة، وتنضجها التجربة والكفاح، وتتعلم من مدرسة الحياة والممارسة بما فيها من خطأ وصواب»[١].

لكن القطة المغمضة، كما يقولون، التي استمرأ الجميع سكوتها، بعد أن أدمنت قول حاضر ونعم، دون نقاش، بدأت تفتح عينيها وأذنيها لترى وتدرك ما يدور حولها، فهي بنت وسائل الإعلام التي اقتحمت خدورنا، فلم يبقَ في وسعنا أن نقفل في وجهها عقولنا. إذا صمد جيل الأمهات قانعاً منتظراً فتوى الشيخ الجاهزة المستخرجة من بطن الكتب لا تمت إلى الواقع المعاش بصلة، لينفذها طائعاً أو مكرهاً، فإن جيل البنات والحفيدات الذي يعيش ثورة المعلومات والاتصالات، وعصر السؤال والتساؤل، في سهولة دخوله إلى شبكة (الإنترنت)، وتعدد مصادر الفتوى لديه، لا يقبلها دون دليل، كائنٌ من كان قائلها، لم تعد تكفيه الشروح على المتون التي استظهرت حتى نسيت المتون، بل أصبحن يسألن عن المتن والسند، والوضع الذي ورد فيه المتن في السيرة النبوية، للمقارنة والتمحيص.

ماذا نفعل؟ فنحن من عادتنا أن نصل متأخرين، بعد أن نقف طويلاً في صفوف المتفرجين، وعندما نتبين أن الركب كاد يفوتنا

---

(١) أولويات الحركة الإسلامية، د. يوسف القرضاوي، ص ٦٦، مكتبة وهبة، طبعة ٤، ١٩٩٢.

نسرع لاهثين للحاق به، قد ندركه وقد يفوتنا. إن مسلمة اليوم، التي جلست جنباً إلى جانب على مقاعد الدرس في الجامعات مع أساتذتها من الرجال، مؤمنة بربها، واثقة من دينها؛ أحسنت فهم قرآنها، فأيقنت أنها مستخلفة ومكلفة مثلها مثل الرجل، فهي صنوه في الإنسانية، أبلغها الإسلام رشدها، فابتعدت عن خلافات التحريم والتهويل، وعن تجديفات المتطاولين بغير علم، عكفت على دراسة سيرة نبيها، الذي جسد القرآن وتعاليم الإسلام واقعاً معاشاً، فالتزمت بآداب الإسلام وأوامره لا خوفاً من أحد، ولكن امتثالاً لأمر ربها الذي أحبته، وأحبت نبيه.

وجدت في بحثها أن الرسول ﷺ، عمل طيلة حياته ومدة تبليغ رسالته، على ترسيخ النظرة الجديدة للمرأة، التي خالف فيها الإسلام كل الأعراف الموروثة؛ جاهلية مشركة، أم توراتية محرفة، مشعراً إياها بقيمتها وأهليتها، وكونها شقيقة للرجل ليست أدنى منه، بل شقه الثاني، لها ما له من حقوق، وعليها ما عليه من واجبات، وأنها مكلفة ومحاسبة على عملها إن خيراً بخير، وإن شراً بشر ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾ [الزلزلة: ٩٩/٧-٨].

لكن تلك القراءة لقرآنها وسيرة نبيها، حملتها على أن تصدم بالفرق الشاسع بين الإسلام الرسالي الذي يرفع المرأة وبين الواقع المختلف عنه في معاملة المسلمين اليوم المرأة، وأكثر المؤمنين الأتقياء

يتقربون إليه سبحانه وتعالى بالحجر عليها وإخفائها وراء حجب الظن والشك وخوفِ الفتنة (إلا من رحم ربي). قد غاب تدريجياً عن الساحة الفكرية والخطاب الديني (المتعلق بالمرأة) قال الله وقال رسول الله لتظهر مقولات، (قال فلان، ويرى فلان، ومن الأفضل، والأحوط، وسداً للذرائع) حتى بدأ هذا الانحراف الذي وصل بالمرأة إلى هذا المنعطف الأخير.

إن من ينظر نظرة منقبة في تاريخ المرأة عبر دروب البشرية يجد أن أوضاعها الاجتماعية لم تكن واحدة عبر ذلك التاريخ، وفي كل بقاع الجغرافيا؛ فإن حالها كانت تنتقل من القمة إلى الحضيض أحياناً، ذلك الطريق المتعرج الذي سلكته المرأة في تاريخها الطويل، يشعرنا أن حال المرأة يتحسن عندما ينصفها الرجل، فهو العنصر الأقوى الذي يسيطر على زمام الحياة وأمورها، يسيرها حيث شاء، لكنها تسوء عندما يتملكه غرور القوة، ويغرق في جهل التكبر والاستعلاء فيظلمها ويسيء إليها.

يذكر قاسم أمين في كتابه (تحرير المرأة)، أن التاريخ يحدثنا أن هناك تلازماً بين انحطاط المرأة وانحطاط الأمة وتوحشها، وبين ارتقاء المرأة وتعليمها وتقدم الأمة ومدنيتها[١]. لكن قارئ

---

(١) قاسم أمين، تحرير المرأة، منشورات دار المعارف للطباعة والنشر، سوسة - تونس ص١٣.

التاريخ لا بدّ له من أن يعجب عندما لا يجد لها في الأعم الأغلب أي فعل في أحداثه، وليس لها دور يسجل من المسؤول؟ هل هو الرجل الذي تتهمه المرأة دائماً بأن له الدور الأكبر في إقصائها عن مسرح الحياة وأحداثها ليقوم بتمثيل كلّ الأدوار وحده!! أم أن المسؤولية تقع عليها وحدها، لأنها لم تحاول أن تثبت ذاتها، ولا قدرة الله فيها، لتعي ما حولها وتعرف مالها وما عليها، فتؤدي واجباتها وتنال حقوقها؛ فإن من يثبت ذاته لا يملك كائناً من كان أن ينفيها؟.

تقول جميلة كَدِوَر في كتابها (المرأة رؤية من وراء جدر): لو أن أرقاء الأرض استمروا في صبرهم السلبي على الذل، لما انتهى الرق من سطح المعمورة، فالإنسان أسير الإلْف والعادة، يظن أن الصواب ما هو عليه مهما كان خاطئاً، إذا لم يقم أحد بتنبيهه.

كانت يد الذي يحاول الكتابة أو القراءة من العبيد تقطع فوراً، ثم يجلد وينكل به، ليكون عبرة لغيره. لكن العبيد تعلموا في السر، علّم بعضهم بعضاً، حتى نالوا حريتهم.

إن استمرار النظرة عبر القرون إلى المرأة على أنها مخلوق من الدرجة الثانية أو الثالثة، أدى إلى يقين لديها، أنها ما خلقت إلا لخدمة الرجل، وقضاء حوائجه، وإنجاب أطفاله، ذلك الاتجاه العام الذي أوحي به إلى المرأة، حتى تكرس في أعماقها أنها ضيف ثقيل الظل على هذه الأرض، ليس لها فيها موقع إلا

بالقدر الذي يسمح به الرجل، وولد عندها شعوراً واعتقاداً أنها مضطرة إلى التعايش في عالم لا تمت له بصلة[١].

يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لم نكن نقيم للمرأة وزناً في الجاهلية، حتى جاء الإسلام فأعطاها ما أعطى.

أطلت شمس الإسلام على العالم، ليعيد الأوضاع المعوجة إلى نصابها، ويعطي لكل ذي حق حقه، فقد بنيت أحكامه على العدل والإحسان، وأرجعت لأهل الأرض توازنهم الذي أضاعوه بظلمهم وجهلهم، جاءت أحكام المرأة تشعر المسلمة أنها مدللة محظوظة بهذا الدين الذي تفيأت ظلاله، فقد منحها ربها حقوقاً فاقت بكثير ما حصلت عليه أختها الأوربية في عصورها الحديثة بعد طول عناء، وصراع ومطالبة؛ أعطيت حق التصرف في مالها ونفسها، حق التصويت، حق الإنفاق عليها المفروض على زوجها أو وليها، وكان ذلك قبل عهود الديمقراطيات وحقوق الإنسان، وقبل أن يعرف الإنسان ما هي الحقوق، وما هو التصويت، فقد كانت الدنيا تؤخذ غلاباً، والحق دائماً في جانب الأقوى.

لكن تلك الفترة لم تدم طويلاً، فلم تتنعم المرأة بتلك النعم

---

(١) المرأة رؤية من وراء جدر، جميلة كدور، المقدمة، ص ١٩، طبعة دار الفكر ٢٠٠١، بتصرف.

الربانية إلا أمداً يسيراً، ما لبثت أن سلبت منها بعد وقت قصير، يذكر ديورانت في (قصة الحضارة) أنه ما إن أطل القرن الثاني للهجرة حتى عزلت المرأة تماماً عن المشاركة في الحياة العامة، ومنعت من حضور الجماعات في المسجد، على الرغم من مخالفة ذلك للأحاديث الصحيحة، وممارسة الصحابيات لتلك الأمور بشكل تلقائي لم يكن يثير اعتراض أحد.

مضى الفقهاء في تشددهم في أحكام النساء، ضاربين عرض الحائط بكل الآيات الواضحة والأحاديث الصريحة، التي تعطي المرأة حقها، وترسخ قيمتها الإنسانية، ولم يكن تراب قبر الرسول ﷺ قد جفّ تماماً، حتى نسيت توصيته بالنساء خيراً عندما كان يجود بأنفاسه، وعادت الأعراف القبلية سريعاً لتتحكم في فقه النساء، وتحكم السيطرة عليه، بعد أن ألبست قداسة الدين، فلم تعد المرأة تملك حق الاعتراض، ونسوا في غمرة انشغالهم بتفقيه حياة المرأة، وتضييق حدودها إلى أبعد ما يحتمله حدود فقههم، أن الله سبحانه وتعالى هو رب الرجل ورب المرأة، ومن المستحيل وليس من شأن عدله سبحانه أن يحابي شطر الإنسانية على حساب شطرها الآخر وهو القائل سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات: ٤٩/١٣] فالكرامة عنده سبحانه وتعالى للتقوى،

لا للجنس من ذكورة أو أنوثة، ففي الإسلام لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى والعمل الصالح، لا افتخار بجنس ولا بأصل، فإن ذلك من شأن إبليس، الذي أخطأ في إبليسيته مستحقاً اللعنة والطرد، افتخر بأصله ظناً منه أن عنصر النار خير من عنصر الطين، ناسياً أن الله هو خالق النار وخالق الطين، وكان خطؤه الأكبر في إلقاء المسؤولية على غيره وعدم تحمل أخطائه ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾ [الأعراف: ٧/ ١٦] ثم استمر في إصراره على الذنب، وعدم عزمه على التوبة والتصحيح، وتغيير ما بالنفس. ونحن بني آدم لكننا للأسف نتنكب سبيله في التوبة والاستغفار والإصلاح، ونتبع خطوات إبليس التي حذرنا الله منها، والتي أخرجتنا من الجنة.

إن التميز في الإسلام لا يكون عن طريق الجنس ولا الأصل، إنما بتصحيح المسار نحو التقوى والعمل الصالح، فالذكر والأنثى هما مشروع إنساني يتحقق عبر سنوات حياته يستحيل تعريفه لحظة ولادته، أو امتيازه بنوعه - فليس في شرعنا امتياز بنوع وليس فيه ولدُ الخطيئة - فهو الذي يكمل ذاته باكتمال توحيده، وانسجامه مع بقية المخلوقات في الكون، بأداء دوره الذي خلق من أجله. إن القرآن الكريم لم يشر إلى فضيلة أو شأن يخص الرجال وحدهم، لأنهم خلقوا رجالاً، فقد ورد فيه مدح للرجال الصالحين والنساء الصالحات، كما ورد فيه ذم

للمسيئين والمسيئات. ربما كان الوعيد للرجل أكبر لأنه منح درجة القوامة، ليأخذ بيد أسرته إلى العمل الصالح الذي يدخل الجنة ويباعد من النار، إنها زيادة تكليف ومسؤولية، لا كما يحسب بعضهم أنها مرتبة تشريف تجعل الرجل في بيته ربه الأعلى، فالرجل والمرأة محكومان بالدينونة والعبودية لجبار السماء، الذي لا يكون شيء في السماء ولا في الأرض إلا بعلمه ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾﴾ [النجم: ٥٣/ ٣١].

إن تقويم السماء يختلف عن أهواء أهل الأرض، تبقى القيمة للإيمان والعمل الصالح، لا لجنس أو نوع، لكن هذه الحقائق الغائبة تجعل وجه العالم الإسلامي لا يزال يَسْوَدُّ إذا بشر بالأنثى على رغم تقاه وورعه وتلاوته للقرآن!!

تجذرت في وعي مسلم قرون التخلف، وفي أعماقه تلك النظرة الدونية التي تكونت وجَرَت عبر القرون والأزمان مجرى المسلمات التي لا يجوز المساس بها أو في مدى صحتها، وقد يوصم بالردة أو الكفر من حاول الاقتراب منها.

تجرأ داعية مشهور ومعروف جداً، مشهودٌ له بالتقوى وسعة الاطلاع، فأفتى أن وجه المرأة وكفيها ليسا بعورة، مستنداً إلى أقوال فقهية معتبرة قديمة وحديثة، لكنه سرعان ما تراجع في اليوم الثاني عن فتواه، بعد موجة الاحتجاجات والانتقادات

التي انهالت عليه، معلناً توبته ورجوعه عن فتواه، وعن الإثم الذي ارتكبه بمخالفته لإجماع العلماء الأجلاء، مبرراً فتواه أنه كلام موجه للخارج وليس للاستهلاك الداخلي(١).

تولت الفضائيات العربية نشر هذا الفقه الذي كان محفوظاً في باطن الكتب، يطلبه من كان في حاجة إلى شيء منه، فأصبح مكشوفاً للجميع، ومجالاً للتعليقات الساخرة أحياناً، والمصدومة والمبهوتة أحياناً أخرى، ينقل الكلام من بطن القرون التي كتب فيها دون تبديل أو تعديل؛ باستعمال كلمات معاصرة تفي بالمعنى، كأن الأمانة الفقهية تقتضي استعمال التعابير نفسها، فهمها المعاصرون أم لم يحسنوا فهمها. تحولت الآيات الكريمة التي تشير إلى العلاقة الزوجية فتوحي بالمحبة والستر دون أن تخدش حياء أحد ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة: ٢/ ١٨٧] ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ٧/ ١٨٩] - فالزواج القرآني سكن، ولباس، ومودة، ورحمة، هو سكن لها - وهي سكن له، لتسمو المشاعر الإنسانية وترتفع العلاقة الحميمة من حمأة الغريزة الحيوانية، إلى عقد تآلف بين مؤمن ومؤمنة، تضيف لبنة جديدة في صرح مجتمع راق، يقوم على عقيدة سليمة، وصحبة كريمة، ووحدة في الأهداف - تحول هذا النقاء في اللفظ وفي المعنى على أيدي فقهائنا رحمهم

(١) الشرق الأوسط ١٩ نيسان، ٢٠٠٥ م، تحت عنوان (عايض القرني يستجيب للضغوط ويعلن تراجعه عن فتواه).

الله، إلى عقد انتفاع بجسد، وامتلاك لبُضْع بثمن، أو ليطأها متى شاء، لقاء الثمن الذي دفعه. زالت منه تلك الصفة الإنسانية الراقية، لتنقلب إلى عقد عمل وانتفاع مادي أدى إلى المغالاة في المهور، بعد أن غدا عقد الزواج صفقة تجارية، المرأة فيها لتلبية الرغبات وخدمة البيت وتقبُّل الأوامر، والرجل لجلب المال والإنفاق على البيت. وبين معاملات مالية وصفقات تجارية مادية، انتفى مفهوم السكن، وضاعت المودة والرحمة، كما أهدرت الحكمة من الزواج.

من خلال فقهنا المستور الذي انكشف، قرأت لعالم جليل في حوار معه عن المرأة ما لها وما عليها، عندما وجه إليه سؤال: **هل يحق للزوج أن يمنع زوجته من الخروج تحت أي ظرف كان؟ أجاب فضيلته: إن أكثر علماء السنة والشيعة يفتون بأنه يحق للزوج أن يمنع زوجته من الخروج ويسجنها مدى الحياة، إذا كان يقدم لها ما تحتاجه من طعام وشراب. أضاف فضيلته أنه شخصياً يخالف تلك القاعدة الفقهية - المجمع عليها - لعدم شرعيتها وتناسبها مع قاعدة الإمساك بالمعروف أو التسريح بإحسان، لكنها تبقى قاعدة فقهية معتبرة في كافة المذاهب السنية والشيعيّة[(١)]!!**

---

(١) دنيا المرأة، حوار مع الشيخ حسين فضل الله، ص ٩٢، دار الملاك.

من أباح للفقهاء أن يعطوا ذلك الحق المطلق للزوج؛ أن يحبس زوجته مدى الحياة سجناً مؤبداً؟ ألا يشكل هذا الحق المطلق حرجاً كبيراً للمرأة، مارسه الزوج أم لم يمارسه!! تصاب المسلمة برعب قاتل عندما تجد البون الشاسع بين ما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام وطبّقه، وبين ما تحفل به كتب الفقه من أحكام ما أنزل الله بها من سلطان!!

من الذي أعطى الفقهاء هذا الحق والسلطة المطلقة، التي تشبه سلطة الكاردينالات في الكنيسة المسيحية للتحدث باسم الدين؛ يسجنون من شاؤوا ويطلقون الحبل على الغارب لمن يشاؤون، يُدخلون الجنة أو النار، بحسب مقاييسهم الخاصة التي اتفقوا وتواضعوا عليها، وإذا تجرأ أحد الشيوخ المعاصرين وطالب بفقه جديد معاصر للحياة، اتهم بالكفر أو الردة، وحرم من شرف الانتساب إلى مدرسة الفقه التقليدية، أو إجماع أهل السنة والجماعة!!

وبين من يطالب بحبس المرأة في البيت للوطء وتلبية رغبات الزوج، ومن ينادي بمساواتها نداً للرجل، يطالبها بأن تكد وتكدح لتحصل على لقمة عيشها، ضاع الأولاد، وتصدع البيت، وتخرب المجتمع، فوصلت الأمة إلى الدرك الأسفل من السلم الحضاري بين أمم العالم، ألا يوجد عندنا تدرج في الألوان؟ إما أبيض وإما أسود، إما أَمَة تابعة للزوج لا تملك أن

تفتح فمها إلا لتناول اللقمة، وأخرى مسترجلة ناقمة على الذكر والذكورة، تحاول جذب الحبل إلى ناحيتها، لتكون لها القوامة على الرجل، وعلى بيته وأولاده، أما ثمة حلٌّ ثالث يمارسه الأسوياء من الأزواج، يقوم على حوار هادئ، ومشاركة بناءة يسودها الود والتفاهم؟!

ويبقى الشأن شأن المرأة، فإما أن تعقلن عاطفتها وتعي دورها، وتنقذ أهلها والمجتمع من حولها، أو أن تبقى أسيرة جسدها الذي لا تملك من المواهب الإنسانية غيره، تتفنن في إبراز مفاتنه، ليتحدث باسمها معبراً عن الفراغ الذي في داخلها، فتجعل المجتمع يعيش حالة طوارئ جنسية تغرقه في حمأة الشهوة المبتذلة، التي تذهله عما يدور حوله، على حدّ قول الشيخ حسين فضل الله[١].

لن يخرج مسلمة العصر من حيرتها، وضياعها بين أقوال الفقهاء؛ الأقدمين منهم والمحدثين، إلا عودتها لتنسم أريج سيرة رسولها العطرة عليه الصلاة والسلام، في مواقفه الرائعة من المرأة زوجة كانت أم ابنة، أم حفيدة، أم صحابية، لم يجد عليه الصلاة والسلام من العيب ما يجده بعض متقي اليوم في أن يحب زوجته، ولا في عاطفته النبيلة عورة يجب سترها، فعندما يسأله

(١) من كتاب (المرأة بين واقعها وحقها في الاجتماع السياسي) ص ١٠٣، بتصرف، نقلاً عن تأملات في منزلة المرأة في القرآن، حنان لحام.

أحد صحابته: من أحب الناس إليك؟ يجيب ببساطة: إنها عائشة، لا يتحرج من ذكر اسمها صريحاً، ذلك الاسم الذي غدا مع مرور الزمن عورة يستحى من ذكرها، فيكنى عنها (بالحرمة) أجلك الله، أو المستورة، أو أهل البيت، ينسى أن لها اسماً تنادى به فهي أم فلان، أو زوجة فلان، أو ابنة فلان، وكأنه ليس لها شخصية مستقلة لها عنوان واسم تعرف به، فهي لا تعرف إلا بإضافتها للرجل، مع أن زوجات الرسول عليه وعليهن الصلاة والسلام، ما ذكرن في حياته وبعد مماته إلا بأسمائهن، فخديجة، وعائشة، وحفصة وزينب وهكذا...

صلى الله عليك يا سيدي يا رسول الله، فأنت الكامل في نبوته، المتوازن في رجولته، في حال حبه وكرهه، في صراحته ووضوحه، مشهود له بحسن معاملة المرأة وإكرامها، كأرقى ما يعامل رجل متحضر امرأة، وهو الذي عاش في تلك البيئة البدوية التي لا تقيم للمرأة أي وزن.

أتخيله - بأبي هو وأمي - يسابق عائشة فتسبقه، ثم يسابقها فيسبقها، فيقول: هذه بتلك، وذلك على مرأى ومسمع من الجميع.

يبادر بالقيام لدخول فاطمة - عليها وعلى أبيها أزكى السلام - قائلاً: فاطمة بضعة مني، من أحبها فقد أحبني، ومن آذاها فقد آذاني.

تعامل عليه الصلاة والسلام مع المرأة كما تُحَدثنا كتب السيرة في كافة مراحل عمرها معاملة طيبة؛ تزوج الكبيرة التي كادت تكون في عمر أمه، فأحبها واحترمها، وعرف قدرها حية وميتة، ذاكراً فضلها عليه؛ تزوج أم الأيتام، فأحسن إلى أيتامها، ورباهم في حجره الكريم، كما تزوج الأسيرة، التي كان مهرها فكاك أسرها. كان لكل زوجة من أزواجه قصة معروفة في حسن المعاملة والمعشر، أما عائشة فانفردت بقصة حب تؤلف فيها الروايات، تلك التي جعلته يستأذن ربه في المساحة الكبيرة التي احتلتها من قلبه، حتى زوجاته الأخريات فقد أقلعن عن منافستها، راضيات بقسمهن من لطفه، وبره، وعدله.

سألته مرة بدلال: كيف حبي في قلبك يا رسول الله بأبي أنت وأمي؟ قال: حبك يا عائشة في قلبي مثل عقدة الحبل، فكانت كلما وجدته مهموماً أو معرضاً عنها تسأله: كيف حال العقدة يا رسول الله؟ فيجيبها مبتسماً دون أن يعرف أحد السرّ الذي بينهما: هي كما هي يا عائشة[١].

كذلك كان تعامله مع الأطفال من أحفاده، ومن أبناء

(١) عن كتاب (عائشة في بيت النبوة) للدكتور البوطي، ص ٢٩، عن حلية الأولياء.

أصحابه من أنصار ومهاجرين، كان يحمل حفيدته في صلاته، في سابقة لم تعرفها الجاهلية ولا الإسلام، يضعها إذا سجد، ثم يعاود حملها حين قيامه، ليعلم ذوو القلوب القاسية أن الأنثى ربما تحتاج إلى رقة أكبر في التعامل من الذكر لرهافة حسها.

ركزت الأسفار التي كتبت في سيرته عليه السلام على حياته نبياً، ومشرعاً، ورئيسَ دولة وقائداً، يستقبل الوفود، ويجيش الجيوش، ويرسل السفراء؛ أما عن حياته في بيته البسيط، وكيف يعيش بين أهله يفيض على من حوله حباً يعوضهم عن الحرمان المادي الذي كانوا يعانون منه، فقد غفلوا عنها. ظلت أبوابه عليه السلام مفتحة في حياته وبعد مماته، حيث كانت أزواجه لا يكتمن سراً من أسراره. تزوج عليه السلام الكبيرة والصغيرة، الثيب والبكر، من كلّ الأعمار وفي كافة الظروف، ليجد كلّ من أراد أن يقتبس نوراً من هدي النبوة الخاص، ما يناسب ظروف حياته. كان عليه الصلاة والسلام في سلوكه نبراساً يعلم الناس ويزكيهم، ليخرجهم من جهالة البداوة إلى رقي المدنية، رحم الله شرّاح السيرة ذكروا كل شيء عن حياته بأمانة علمية فائقة، حتى اسم ناقته وحماره، وملابسه وشكل نعله، ما يحب من الطعام وما يكره، حتى إذا وصل بهم الأمر إلى حياته العاطفية مروا عليها مرور الكرام، مع أنه عليه السلام عبّر عن مشاعره وعواطفه بأرقى كلمات لا تخدش الحياء؛ فهو

الذي بعثه ربه بالهدى ودين الحق، ليصحح أوضاع الأمور المائلة، معيداً إياها بتصرفه العملي وتعليماته إلى نصابها من النهج السليم. فبقدر علوه في رسالته، كانت بساطته في إنسانيته وبشريته، كإنسان صاغت منه العناية الإلهية القدوة والمثل الأعلى في الأخلاق الإنسانية الراشدة، والعلاقات الاجتماعية السليمة، ومن خلال ممارسته الصورة المثلى لعلاقة الرجل بالمرأة، ومن رعاية الغرائز الطبيعية التي أودعها الله بني البشر، وفي كل مناحي الحياة، فنحن لم نؤمر بالتشبه بالملائكة، ولا تركنا لننحدر إلى رتبة الشياطين، بل كان لنا في رسولنا الكريم أسوة حسنة، ونحن وإن طال الزمن، واشتدت الغربة، وتضاربت الأقوال والآراء، محكومون ومطالبون بما قال الله سبحانه وتعالى، وما قاله رسوله الكريم، لا بما قال فلان أو علاّن.

كم نحن بحاجة إلى أقلام المؤمنات الواعيات لإخراج كنوز بيت النبوة، للاستفادة من هديه الأُسري في علم اجتماع الأسرة، بعد أن شاع بين الناس، حتى بين المسلمات أنفسهن، أن الإسلام دين ذكوري لا يقيم للمرأة وزناً.

بعيداً عن تشدد المتشددين، وتسيب المتساهلين، وعجز الآخرين، يبقى الأمل الذي يضيء ظلام الحاضر، وينير الطريق لأجيال لم تولد بعد، حتى لا نبقى في تخبط مريض، بين واقع سيئ، وماض مشرق نهرب إليه لنرتاح، استمتعت جداً بدراسة

قيمة لدورية المرأة والحضارة - وهي نشرة متخصصة في دراسات المرأة المسلمة - تقوم عليها أكاديميات مؤمنات واعيات يقدّمن رؤية متوازنة، كمدرسة فكرية في سبيل الإصلاح والتجديد الحضاري للأمة، بعيداً عن التشنج المريض، أو التسيب المخل، في عودة عالِمة إلى كيفية بدء خلق ما وصل إليه حال المرأة عبر قرون التخلف.

قامت الباحثات مشكورات مأجورات بإذن الله، بإلقاء الضوء على الدور الذي كان للمرأة المسلمة، منذ بكور فجر الدعوة، وعبر تاريخ الإسلام الطويل، فكانت شهادتهن شهادة صدق، بأن المؤرخين المسلمين، لم يجوروا على الحق التاريخي للمرأة، كما لم يهملوا دورها السياسي؛ لأن كل ما وصل إلينا من ثروة تاريخية للمسلمات، كان نتاج هؤلاء المؤرخين (الرجال)، فقد ذكرت المصادر التاريخية المرأة التي ثبت أجرها على الأمة كلها، وهي السيدة (خديجة) رضي الله عنها، كذلك أثبت التاريخ أن أوّل شهيدة في الإسلام كانت امرأة. تردّد ذكر المسلمة فاعلة تشارك في الدعوة السرية، وفي احتمال الأذى، وفي الهجرة، وقد ورد ذكر المهاجرات إلى الحبشة في تاريخ ابن هشام، جنباً إلى جنب مع أسماء المهاجرين، هكذا استمر حال المرأة مكرمة فاعلة ومشاركة للرجل في كافة نشاطاته، لم تقف أبداً متفرجة عاطلة منذ أن بايعت الرسول عليه الصلاة والسلام

شخصياً دون أن ينوب عنها أب أو زوج أو أخ. تذكر الدراسة أن بيعة النساء مثلت نقلة حقيقية في الدور السياسي للمرأة، حيث كان لها بيعة خاصة مستقلة عن بيعة الرجال، وبنص ورد في القرآن، حصل ذلك في بداية تأسيس الدولة، وقد وفت المرأة ببيعتها، فعملت على بناء دولة الإسلام، مشاركة، وحاضرة في الغزوات وفي البرلمان الذي كان مسجدَ رسول الله، وما ورد ذكر الصحابة في خبر إلا ورد ذكر الصحابيات، كأن الله سبحانه وتعالى شاء بهذه البيعة الخاصة، أن يعلم المسلمين أن النساء فئة لها رأي مستقل، وإرادة مستقلة، ولها عهد وذمة مستقلان، وأنه لا قوامة في الرأي ولا في العهد. وإذا كان في نص المبايعة ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ ألا يعني ذلك كامل الأهلية على التمييز بين المعروف والمنكر؟ ووجوب اختيار المعروف اختياراً مستقلاً، والإعراض عن المنكر إعراضاً مستقلاً أيضاً.

أولم يكن أولى لمن يقولون بنقص العقل والدين، الذي يجعل حق الترشيح والاختيار للمرأة أمراً غير جائز، ويطالبونها دوماً بالطاعة والتبعية المطلقة، أن يتفكروا قليلاً؛ فما مغزى البيعة إذن؟ ألا يحمل لنا معنى ما؟

غدت المرأة من خلال البيعة معنية، شرعاً، بكل أمر أو نهي ورد في القرآن، وبيعتها تشكل إقراراً منها بوجوب تنفيذ الأحكام الشرعية، فكانت البيعة بمنزلة الفاتحة والقانون الذي

شرع الدور السياسي للمرأة في الإسلام بجدارة، وكان من أهم الأدوار التي لعبتها حق الإجارة كإجارة أم هانئ لاثنين من المشركين، وإقرار رسول الله عليه السلام بذلك بقوله: «أجرنا من أجرت يا أم هانئ»، وإجارة زينب بنت رسول الله لزوجها العاص دون استئذان أبيها، وإجارة أم حكيم بنت الحارث لزوجها عكرمة.

ومن الآثار التي ترتبت على البيعة الشورى، وهي من أكبر الآثار التي أعطت للمرأة حق المواطنة الكاملة (ليست مواطنة من الدرجة الثانية لا تملك حق الانتخاب)، وكما كان لها صوتها في صنع القرار، كان لها أيضاً دورها في المعارضة، كما حدث في عهد الخلفاء الراشدين، من زوجات النبي ومن الصحابيات، كما أن المرأة قد مارست الجهاد بكافة أنواعه وفاء لبيعتها؛ قتالاً، إسعافاً، خدمة مجاهدين، نقل المؤن.

ومن الأدوار المهمة التي مارستها انطلاقاً من بيعتها أيضاً، دورها في العلم والتعليم، (تحصيل العلم ونقله إلى الآخرين) حتى وصل عدد النساء القادرات على القراءة والكتابة إلى نصف عدد الرجال تقريباً كما روى البلاذري في (فتوح البلدان)، اشتهرن في العلوم الدينية والدنيوية على السواء، في علوم القرآن، ورواية الحديث، كما في الفقه والطب. كانت أول المتعلمات والعالمات السيدة عائشة رضي الله عنها، التي قال فيها

الإمام الزهري: «لو أن علم الناس كلهم وعلم أمهات المؤمنين جمع لكانت عائشة أوسعهم علماً»(١).

كذلك اشتهرت من بين المتعلمات أيضاً الشفاء بنت عبد الله التي يقال إنّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه ولاّها الحسبة. منهن أيضاً الربيع بنت المعوذ التي اشتهرت بأنها محدثة ومؤرخة، يأتي إليها الصحابة والتابعون ليأخذوا عنها الحديث، وكانت ممن شاركن في بيعة الرضوان. وقد اشتهرت أيضاً أسماء بنت يزيد بالفصاحة والخطابة، فكانت تدعى خطيبة النساء، كذلك رُفيدة الأسلمية، ونُسيبة بنت كعب، وغيرهن كثيرات ممن كانت البيعة والعهد فاتحة لهن للعلم والمساهمة الفاعلة في تشكيل المجتمع الحديث وبنائه.

كما اشتهرت كثيرات بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الذي يعد وظيفة أساسية في المجتمع الإسلامي، لإقامة الدنيا، وحراسة الدين، منطلقة من ممارستها لمسؤوليتها المستقلة، وقدرتها على التميز بين المعروف والمنكر الذي أكدته الآية الكريمة ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [التوبة: ٩/ ٧١].

رتّبَ الإسلام الدور السياسي للمرأة، وأضفى عليه صبغة

(١) عائشة والسياسة، سعيد الأفغاني، ص ١٦.

الشرعية فأضحى قانوناً عاماً بنص واضح لا يجوز انتهاكه، يخضع له جميع المسلمين، كذلك قُننت الشورى، لتصبح حقاً لكل المسلمات، وليس تفضلاً من أولي الأمر، بل هو حقها كونها مواطنة وواجب عليها أيضاً. شكلت البيعة الخطوة الأولى لتحرير المرأة من كافة القيود، وذلك ضمن تحرير الإسلام للجنس البشري كله بالتسليم المطلق لله وحده دون سواه من المخلوقات، ومن كل السلطات الأخرى التي تستلبه، ومنها سلطة التقاليد(١).

لكن الثوب الإسلامي لم يبقَ على نصاعته طويلاً، فما إن انحسرت مساحة الإسلام واتسعت مساحة المسلمين، حتى خارت قوى الحق أمام بأس المصالح، فأُدمج تاريخ المسلمين بتاريخ العالم، وتلونت أثوابه بكل ألوان التاريخ من أحمر إلى أسود، وكان اللون الأبيض يطل كسحابات صيفية لا تترك أثراً. لم يأتِ التحول سهلاً ولا يسيراً، ولم تُهدم المثل بغتة، إنما انحل تباعاً، وأريقت على أعتابه دماءٌ زكية طاهرة.

فأين كانت المرأة؟

يتفق المؤرخون أن التحول التاريخي الفاصل اقترن بتأسيس

---

(١) عن دورية المرأة والحضارة، ملف بيعة النساء (ربيع المرأة السياسي)، ص ١١ - ١٢، بتصرف، العدد ٢، ٢٠٠١

الدولة الأموية على أنقاض الخلافة الراشدة، فتأثر دور المرأة السياسي كما تأثرت الأمة كلها، بعد أن تحول مفهوم الخلافة إلى ملك عضوض، وكان التأثر سلبياً جداً فيما يخص المرأة، بتقلص المساحة المتاحة لها في جميع الأدوار، كان بداية المنحنى الهابط لدور المرأة، هو إسقاط البيعة الذي يشكل أهم حق أعطاه الإسلام للمرأة، العقدة الأولى التي جرت إلى سلسلة من التنازلات انتهت إلى الاستبعاد المقصود.

مع أن الإسلام أعاد تنشئة المسلمين، وأعاد ترتيب القيم والأولويات، إلا أن ذلك لم يشمل كافة المسلمين بالدرجة نفسها التي تأثر بها الصحابة، فقد كان هناك الأعراب الذين لم يدخل الإيمان في قلوبهم، والطلقاء الذين أسلموا إسلاماً جماعياً، أقرب إلى الولاء السياسي منهم إلى الإيمان، تحول الصدام بعد انقطاع الوحي إلى شبه صدام بين قيم الإسلام وقيم الأعراف القبلية، التي كانت لا تزال حاضرة بدرجات مختلفة في الوعي، واللاوعي الفردي والجمعي، في ثقافة لم يكن للمرأة فيها أي مجال في الحياة العامة، ومنذ اجتماع السقيفة وبيعة أبي بكر، لم يعد للمرأة حظ ليس في التنافس على الخلافة فقط، بل حتى في المشاركة في الاختيار، لم يكن وعي النساء آنذاك يملك القدرة على تجاوز ستار العشيرة الحديدي وثقافتها المسيطرة، بل انخرط فيه حتى النخاع، فلم يستوعب وعيهن دلالات بيعة النساء على

أنه حق ثابت، ملزم للدولة، وللإمام، إنما على أنه حدث تاريخي ارتبط بعهد النبوة، وهو غير قابل للتكرار، وبذلك فقدت النساء منذ ذلك العهد المبكر دوراً هاماً هو المشاركة في تنصيب القادة والحكام، ومع ذلك فقد استمرت النساء في العهد الراشدي في ممارسة الأدوار العامة، وكان لهن حضور في المسجد وفي الشورى في الاعتراض على الخلفاء. بعد مقتل الإمام علي، وانتقال الحكم إلى معاوية، تقوضت معالم السياسة الراشدة، وبدأ نظام الملك العضوض، فكان من تداعيات ذلك التحول على صعيد تاريخ النساء، إنهاء الأدوار السياسية المعترف بها في النظام الإسلامي، فلم يبقَ لها أي دور فاعل، فقد أنهت الدولة الأموية الدور الشرعي للمرأة، الذي كان من أهم آلياته الشورى، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وذلك بمفهوم السلطة المطلقة، الذي أسس على الجبر، والطاعة والصبر، والوصاية الأبوية. تأثرت المرأة تأثراً شديداً، على صعيد واقعها الاجتماعي والأسري الذي تمثل السلطة العائلية والأبوية أحد أهم مكوناته، بعد أن انتقلت أفكار السياسة الجبرية على طريقة الأواني المستطرقة من حيز السياسة إلى مؤسسة الأسرة لتكرس الطابع التقليدي القبلي للأسرة الذكورية، بتوفير مزيد من التبريرات والغطاءات الشرعية، حول الانصياع والطاعة للسلطة الغاشمة، كنوع من الإيمان والتسليم، بأن كل ما يحصل هو من قضاء الله وقدره الذي لا رادّ له.

كانت تلك سمات المفهوم التاريخي الذي ساد المنطقة - وأظن أنه لا يزال سائداً - لعلاقات السلطة والأسرة، وفي كثير من المؤسسات الاجتماعية، مفهوم الإنسان المقهور، الذي يمارس القهر على من تصبح له سلطة عليه، مفهوم الغالب والمغلوب القوي والضعيف، المستكبر والمستضعف. لقد أنهت الدولة الأموية بممارستها القهرية على أمة الشورى والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كل ما أعطاه الإسلام للفرد من حرية. وبعد تهميش هاتين الآليتين، وهما قوام الأمة، وأساس بنيانها، انتهى دور المرأة المعترف به أنه حق لها، وأعيدت بحزم إلى حظيرة الحياة الخاصة، باعتباره الدور الوحيد المعترف به والمقبول اجتماعياً.

كانت هذه النتيجة من أخطر الانتكاسات التي منيت بها المرأة في التاريخ الإسلامي خاصة أنها لقيت قبولاً وتسليماً من مختلف القوى.

نادراً ما نجد سيرة متكاملة للمرأة في التاريخ الإسلامي باستثناء بعض الرموز كزوجات الرسول عليه السلام وبناته، فالنساء في التاريخ الإسلامي ليس لهن وجود مستمر، بل هن يدخلن ويخرجن، ومنهن من لا تذكر إلا مرة واحدة، ويأتي ذكرها مرتبطاً بالموقف، فلا تذكر امرأة إلا مرهونة بموقف جلل.

من القليلات اللاتي عنيت المصادر التاريخية بذكرهن السيدة

عائشة رضي الله عنها، كان ذلك لكثرة ظهورها في المواقف والمناسبات الدينية والسياسية عامة التي تستدعي ظهورها، فلا يمكن أن تذكر سيرة تلك الأحداث دون إبراز دورها، أي إنها هي التي فرضت نفسها على التاريخ ولم تدخله بشكل عفوي.

قد يظن البعض أن عدم ذكر النساء كثيراً في التاريخ الإسلامي، يعود إلى عقدة اضطهاد الأنثى، لكن وجود المرأة المتقطع في التاريخ العام، يعود لطبيعة حياتها المرتبطة بالأسرة في المقام الأول. دخولها وخروجها أحياناً في المشهد التاريخي دليل على وجود بعض النساء اللاتي خرجن عن العرف العام، فإن لم يرد ذكرهن في التاريخ السياسي، إلا أنه يرد أحياناً في كتب الأدب، والتراجم والسير، منهن من اشتهرت بالبلاغة والفصاحة، ورد ذكرهن لافتتان العرب الفطري بالفصاحة، وإن كان المرور على سيرهن من قبل المؤرخين كان مرور الكرام. ولعلّ أهم تلك البلاغات وأشهرها، ما ذكره ابن طيفور، في بلاغات النساء، عن بلاغات الداخلات على معاوية وملوك بني أمية[١].

---

(١) نصوص منتقاة، من خريف المرأة السياسي، الداخلات على بني أمية، د. أماني صالح، ص ٣٦ - ٥٣ بتصرف، نشرة المرأة والحضارة، القاهرة، عدد ٢، ٢٠٠٤.

على رغم انحسار دور المرأة السياسي وعدم مشاركتها في الحياة العامة، الناتج عن انحسار دور الأمة، واختزاله في شخص الحاكم، إلا أن المرأة قد اشتهرت بالفقه ومارست كافة وظائفه، ومن هنا جاء تميز سيرة الفقيهة عن المتصوفة، أو المحدثة أو الشاعرة، لأنها أكثر التحاماً بالمجتمع، منفعلة به ومؤثرة فيه.

في مقال قيم لزينب أبو المجد، في دورية المرأة والحضارة، جعلت عنوانه (لمع الإشارات في طبقات الفقيهات) سعت فيه لدراسة الفقيهة في بيئتها الاجتماعية والسياسية، وتفاعلاتها متأثرة ومؤثرة في مساراتها وتحولاتها، من خلال البحث في عدة عناصر حياتية، منها وضعها في محافل العلماء من الرجال، والوظائف التي تؤديها، وأدوارها الاجتماعية والسياسية من خلال اتصالها بسلاطين عصرها، وكبار رجال الدولة فيها، إذ رصدت سير فقيهات بلغ عددهن ستاً وخمسين فقيهة، جمعت سيرهن من طبقات الفقهاء وأرباب المذاهب، ومن كتب التراجم. تحرت الدراسة مختلف الأمصار الإسلامية، من طبقات الحنابلة، والشافعية، لكنها لم تجد في طبقات الحنفية أي فقيهة. لاحظت في مراجعتها العامة لكتب الطبقات في كافة المذاهب، وعلى مرّ قرون ازدهار الفقه عدم ذكر أي سيدة في أمهات الكتب، إنما يأتي ذكرهن عرضاً من خلال السير والتراجم. استعانت الباحثة - بالإضافة إلى الكتب القديمة - بمصادر حديثة

مثل الدر المنثور في طبقات ربات الخدور (الزينب فواز العاملية) وأعلام النساء (لعمر رضا كحالة) والأعلام (للزركلي)، وقد لاحظت في أثناء البحث عن موضع الفقيهات داخل بيئاتهن العلمية، أن وجودهن تركز في الحواضر الإسلامية، كالعراق قبل سقوط الدولة العباسية، ثم الشام، ثم مصر، وكان منهن عدد قليل في شمال إفريقية، واليمن والحجاز.

أما عن المراحل الزمانية فقد كانت هناك ثلاث مراحل تاريخية رئيسية، مرّ بها اشتغال المرأة بالفقه؛ المرحلة الأولى شملت جيل الرائدات من القرن الثاني حتى السابع، أي منذ بدء تشكيل المذاهب حتى سقوط الخلافة العباسية. أما المرحلة الثانية فتشمل الفقيهات الوسيطات من القرن السابع حتى العاشر الهجري. ثم تأتي المرحلة الثالثة التي تشمل المتأخرات من القرن الحادي عشر حتى الثالث عشر، وهي الفترة التي هيمنت فيها الخلافة العثمانية على العالم الإسلامي.

شكلت جهود الطبقة الأولى من الفقيهات بداية الصعود التدريجي لتفقه النساء من خلال اشتراكهن في تأسيس المذاهب، ومن خلال تفاعلهن الدائم مع الناس وممارسة الوعظ والإفتاء، كان منهن من حضرن مجالس الأئمة المؤسسين للمذاهب، وساهمن في تدوينها، مثل ميمونة العابدة التي ساهمت في تأسيس الفقه الحنبلي، كما ساهمت أخت الفقيه المزني في تأسيس الفقه

الشافعي، إذ كانت تحضر مجلس الإمام، فنقلت للأجيال التالية فقهه.

أما في القرن العاشر الهجري فقد بلغت الفقيهات القمة، إذ اتسع مجال ممارستهن للفعل العلمي والاجتماعي والسياسي أيضاً بعد انهيار الخلافة العباسية، والهجمة الصليبية والتترية على العالم الإسلامي، وقيام الدولتين الأيوبية والمملوكية، وإذ صارت الشام ومصر حاضرتي العلم، مارست الفقيهات مهمة التدريس والوعظ والإفتاء. كانت أوضاع النساء في تلك الفترة على درجة جيدة من الفاعلية، فشكلن جزءاً حقيقياً من مجتمع العلماء في عصرهن، ولم يكنَّ متفقهات من وراء حجاب. اشتهر بعضهن بالتخصص في أكثر من علم في وقت واحد، كما اشتهر غيرهن من العلماء، فكانت الفقيهة متبحرة في أكثر من مذهب، تشتهر بأنها المسندة الأولى في الحديث، بين علماء عصرها من الرجال والنساء، تعرّف أحياناً بأنها الشيخة المسندة أو السيدة العالمة أو الواعظة.

اشتهرت تلك الطبقة من المتفقهات بأمور:

١ - انتسابهن للأسر العلمية الشهيرة التي خرجت العلماء من الرجال.

٢ - حضورهن مجالس العلم تلميذاتٍ، وعقدهن المجالس أستاذاتٍ.

٣ - ارتحالهن في طلب العلم بين المدن، دون أن يعيقهن عن ذلك كونهن نساء.

أورد ابن حجر العسقلاني في مؤلفه (الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة) تراجم نساء زمانه، ومن أخذ العلم على أيديهن، ومنحنه الإجازات.

من الأسر التي اشتهرت بتخريج العلماء أسرة الباعوني الدمشقية التي خرجت منها (عائشة الباعونية)، مما يعني أن علاقة القرابة والنشأة في بيوت العلم كانت تتيح للنساء الانخراط في مجتمع العلماء، والولوج لمواقع أصحاب المذاهب الفقهية، وفي بعض الحالات كُسرت قاعدة الوراثة الذكورية للنسب، ليورث العالم لابنته أو حفيدته حين ينقطع النسب الذكوري، فتورث الحفيدة الأنثى العلم كحفيدة القاضي فخر الدين القاياني، وحفيدة الموفق ابن قدامة.

إن الانتماء الأسري للمرأة الفقيهة لم يمنع من استقلالها في المذهب، فقد تفضّل بعض النساء مذهباً مختلفاً عن مذهب أسرتها، أو عن مذهب من أخذت عنه العلم.

وبما أن الكفاية العلمية والنزاهة الفكرية هي المعيار الرئيسي في جعل العالم مقبولاً وأهلاً للثقة بين الجماهير، فلم تكن لعلاقات القرابة أن تفرض المرأة الفقيهة إذا لم تكن أهلاً لذلك؛ فالعلم هو المحدد والمقياس. وكما ورثت المرأة العلم عن أحد

أقاربها من الرجال، كذلك ورَّثته لأبنائها وأحفادها، مما يكسر السلاسل الذكورية للأنساب بين الأب وأبنائه، ويتصل بين الأم وأولادها من الذكور والإناث، حتى ليعرف الفقيه بأمه التي ورث عنها المذهب.

تتلمذت الفقيهات على كبار الأئمة، كما كان من كبار الأئمة تلاميذ لهن، فكانت تحضر مجالس العلماء كما يحضر مجالسها تلامذة من الرجال (ولم يكن الحجاب عائقاً في ذلك). يقول ابن الجوزي - وهو من القرن السادس الهجري فيما يتعلق بحضور مجالس العلم-: إن المرأة شخصٌ مكلف كالرجل، ويجب عليها طلب العلم، ومن الممكن أن تتلقى العلم من أبيها أو أخيها، أو أحد محارمها، وإلا تعلمت من الأشياخ ذوي الأسنان دون خلوة. أي إن الشرط الوحيد كان عدم الخلوة، ولم يشترط حجاباً عن مجالس العلم. (من الخطأ الخلط بين الحجاب وهو حجب المرأة من وراء ستار أو جدار، وبين اللباس الشرعي المطلوب من المسلمة، الذي لا يمنعها عن علم ولا عن عمل).

عمدت الأساتذة من النساء الفقيهات إلى تأليف الكتب النافعة التي أفادت أجيالاً من التلاميذ، مثل زينب بنت عثمان الدمشقية التي ألفت رسائل في الفقه والسنة[١].

---

(١) عن زينب بنت فواز العاملية، الدر المنثور في طبقات ربات الخدور، ص ٢٢٨، عن نشرة المرأة والحضارة، ص ٧٦.

أتاحت الوظائف التي مارستها النساء الفقيهات من وعظ وتعليم وإرشاد، أتاحت لهن القيام بأدوار اجتماعية على مستوى شعبي واسع، واتصال مباشر بالناس، ودفعهم إلى العمل على إصلاح الحال في الأوقات التي يستشري فيها الفساد؛ أجمل ما قرأته في ذلك التاريخ المشرق للنساء في تلك القرون، أن تذكار باي خاتون بنت الظاهر بيبرس، قامت عام ٦٨٤ هجرية بإنشاء رباط خصصته للشيخة الصالحة زينب بنت أبي البركات المعروفة ببنت البغدادية، لتقيم فيه، ومعها السيدات اللواتي طلقهن أزواجهن، أو هجروهن، حتى يتزوجن أو يرجعن لأزواجهن، فتعمل الشيخة على وعظهن وتعليمهن الفرائض (هذا ما تحاول أن تقوم به بعض الدول المتقدمة الآن، وما لا تحلم به نساؤنا المقهورات)!!

من أبرز نماذج الفقيهات قصة حياة طريفة مليئة بالتفاصيل، حتى ليجتمع فيها سيرة جميع الفقيهات من بني جنسها، وهي الفقيهة والمفتية فاطمة بنت أحمد السمرقندي، التي كانت تدخل على الملك العادل الأيوبي، فهي تمثل أُنموذجاً للفقيهة المنخرطة في الحياة العامة العلمية والاجتماعية، كما أنها على اتصال بالسلطة تستشيرها فيما ينفع الناس، وهي فقيهة محدثة بخارية الأصل، أخذت العلم عن جملة من الفقهاء على رأسهم والدها الشيخ أحمد علاء الدين السمرقندي، فحفظت عنه كتاب التحفة. كانت

تفتي معه، فتظهر الفتوى بخطها وخط أبيها، (وكانت ذات خط جميل) جمعت إلى جانب علمها أنها كانت من حسان عصرها، وفي الوقت نفسه كان علاء الدين أمير كاسان[(١)] تلميذاً لوالدها، فعمد إلى تزويجها إياه، وكان تلميذاً نجيباً شرح التحفة لشيخه في كتاب (البدائع) وكان هذا مهر فاطمة، فقال فقهاء عصره: شرح تحفته وتزوج ابنته. وصارت الفتوى بعد ذلك تخرج بخط ثلاثتهم[(٢)].

كانت أوضاع المرأة الاجتماعية بوجه عام في تلك البيئة الزمانية والمكانية، تتسم بفعالية كبيرة خارج حدود المنزل. وفي استقراء لبعض النصوص التي كتبت عن النساء في ذلك العصر، يمكن استجلاء الوضع الاجتماعي للمرأة. من أبرز تلك النصوص كتابات ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، وجلال الدين السيوطي، الذين شهدوا الحياة الاجتماعية في مصر والشام، من القرن السابع حتى العاشر الهجري، فقد انتبه الشيوخ في تلك الفترات إلى الحضور الاجتماعي الهائل للنساء خارج البيوت، فصرفوا جهدهم في تصنيف مؤلفات فقهية وأدبية لوضع ضوابط

(١) مدينة كبيرة في أوّل بلاد تركستان وراء نهر سيحون وراء الشاش. (معجم البلدان ٤/ ٤٣٠).

(٢) عن عمر رضا كحالة، أعلام النساء، مؤسسة الرسالة، ٤/ ٩٤ - ٩٥ بتصرف، نقلاً عن نشرة المرأة والحضارة، العدد ٢، ٢٠٠١

تتعلق بمظهر المرأة وسلوكها خارج منزلها؛ ناقشوا لباسها للصلاة، وللخروج، ومسائل زينتها، وحاولوا نهيها عن ارتداء ملابس لافتة للنظر، ومع تحامل هؤلاء الفقهاء على البروز الاجتماعي للمرأة، إلا أن أياً منهم لم يضع العوائق أمام اشتغالها بالعلم، فابن تيمية كان يثني على العالمات الجليلات في عصره، وكانت ابنة أخيه فقيهة على مذهبه الحنبلي.

أما في القرون المتأخرة من تاريخ الحضارة الإسلامية، فقد بدأ فيها أفول محزن لاشتغال المرأة بالفقه، ولممارسة العمل الاجتماعي والسياسي؛ فقد اختفى بشكل غامض ذكر النساء المفتيات والواعظات والمدرسات، أو المشتغلات بأي وظيفة من الوظائف التي اعتادت الفقيهات ممارستها، ومن ثم لم يعد في إمكانهن الانخراط بالمجتمع وممارسة التأثير فيه، تزامن ذلك مع قيام الخلافة العثمانية، وتقهقر أوضاع العلم والعلماء، مما أثر بشكل مباشر في وضع النساء، فلم تعد كتب التراجم تحوي ذلك الزخم من أسماء الفقيهات في مصر والشام، بل تفرق بهن الحال في مختلف البلدان، فكانت تبرز فقيهة هنا وأخرى هناك، وانصرف أكثرهن إلى التصوف، فاشتهرت به كثيرات[1].

---

(١) مقتطفات من سيرة المرأة، زينب أبو المجد، لمع الإشارات في طبقات النساء الفقيهات، ص ٥٥ - ٨٠، بتصرف واختصار، عن مجلة المرأة والحضارة، العدد ٢، ٢٠٠١

ظهرت بذور التصوف في سماء الفكر الإسلامي، مع بداية الدعوة الإسلامية، إذ عرف عن أصحاب الرسول ﷺ أنهم رهبان في الليل فرسان في النهار، لكن التصوف تبلور بشكل حركة مع القرن الثاني الهجري، كرد فعل على ما وقع في العالم الإسلامي من حوادث سياسية، أثرت في جميع جوانب الحياة، ثم جاء الإغراق في التصوف نتيجة احتكاك العرب بالدول المجاورة أيام الفتح الإسلامي، ودخول بعض المسيحيين وأتباع الديانات الأخرى في الإسلام، حيث نقلوا معهم أفكار الرهبنة والزهد التي تطورت إلى التصوف الذي جاء ثورة على الترف العقلي والسلوكي، بعد أن سادت العرب البسطاء أنماط الحياة القيصرية والكسروية، وهروباً من جور الحكام، فكان ثورة عقلية واجتماعية انخرط فيها كثير من الرجال، وبما أن المسلمة بنت عصرها فقد اتجهت إلى التصوف كما اتجه الرجل، إذ وجدت فيه متنفساً لها بعد أن أقفلت في وجهها حلقات العلم. ظهرت طائفة من المتصوفات الشهيرات كفاطمة النيسابورية، وملكة بنت داوود التي أجازت لابن عساكر جميع حديثها، كما أن صلة كبيرة قامت بين إقبال المرأة على التصوف، واتجاه النساء عموماً إلى الوقف على المساجد والزوايا والتكايا، فكان هناك دعم كبير منهن لمؤسسة الوقف. بعض النماذج المشرقة من المتصوفات في التاريخ، بعد أن انحسر دور المرأة الفاعل في الحياة العامة، يؤكد كسر النساء لاستبداد الرجال بمجالس العلم

الصوفي، ومع الصمت المتعمد عن الحياة الاجتماعية الضيقة للمتصوفة، زوجة وأماً، تبرز خصوصية التصوف النسائي عن تصوف الرجال، فهو ليس خروجاً عن حدود الأجساد والمحسوسات الذي يوصل إلى الرهبنة المرفوضة إسلامياً؛ فقد استطاعت المتصوفة أن توفق بين حياة المرأة العادية وتصوفها، وأن تعقد تصالحاً بين رغباتها في التفرغ للعبادة والتبتل، وحقيقة كونها زوجة وأماً، فأدارت الصراع داخلها محاولة التوفيق بين وجودها الاجتماعي، والروحاني، مما يدل على ألوان المجاهدة التي كانت تعانيها المتصوفة؛ زوجة تطهو الطعام وتنظف البيت، وأماً تحمل الأطفال وتلدهم، ثم ترضعهم وتنشئهم النشأة الصالحة، وهي في الوقت نفسه تقوم الليل وتصوم النهار، وتعكف على الاستغفار والتسبيح، مطالبة زوجها باللقمة الحلال، كما قالت نُسيبة بنت سليمان، امرأة يوسف بن أسباط لزوجها: «إن الله سائلك عني ألا تطعمني إلا حلالاً، ولا تمد يدك إلى شبهة بسببي».

كذلك كان للحاجَّة وهيبة البقاعي المتصوفة العالمة في القرن الماضي في دمشق حضور كبير ودور في تثقيف النساء وإرشادهن، كما أنها أسست مدرسة شرعية لتعليم البنات، وهي تلميذة للشيخ علي الدقر.

إذا كان التأريخ الصوفي قد أهمل ذكر المتصوفات، بينما اهتم

استبانة القارئ

تاريخ الولادة .... المهنة ....

المؤهل العلمي ☐ إعدادي ☐ ثانوي ☐ جامعي ☐ فوق الجامعي

الموضوعات بحسب أهميتها ☐ تاريخية ☐ دينية ☐ علمية ☐ فلسفية

أخرى اذكرها ....

رأيك بالدار

- الإصدارات ☐ مميزة ☐ عادية ☐ ضعيفة
- متابعتك لها ☐ دائماً ☐ أحياناً ☐ نـادراً

رأيك بالكتاب

- الموضـوع ☐ مهم جداً ☐ مهم ☐ غير مهم
- الأفكـار ☐ قيمة ☐ مقبولة ☐ غير مقبولة
- الأسلوب ☐ واضح ☐ وسط ☐ ضعيف
- الإخراج الفني ☐ جيد ☐ متوسط ☐ ضعيف
- الأخطاء المطبعية ☐ لا توجد ☐ قليلة ☐ كثيرة

عند إرسالك بطاقة القارئ النهم للدار، تصبح عضواً في ناديها، ويفتح لك حساب تُبلَغ برقمه، وتُسجل لك نقاط تتصاعد قيمتها كلما أرسلت قسائم أكثر، وتبلغ سنوياً برصيدك الذي يتيح لك اختيار كتب بقيمته من إصدارات الدار تقدم لك مجاناً، كما تقدِّم لك عروض خاصة مخفضة بإصدارات الدار، وإعلام بالفعاليات والندوات والمعارض التي تقيمها.

وفي اليوم العالمي للكتاب ٤/٢٣ من كل عام تقدم الدار جائزة لأكثر القراء نهماً؛ أكثرهم نقاطاً، وأكثرهم قسائم مرسلة.
رأيك محل تقدير لدينا، واقتراحاتك تساعدنا على تطوير عملنا.

المرسل : ....

الدولة : .... المدينة : ....

الشارع : .... المنطقة البريدية : ....

ص.ب : .... فاكس : ....

هاتف : ....

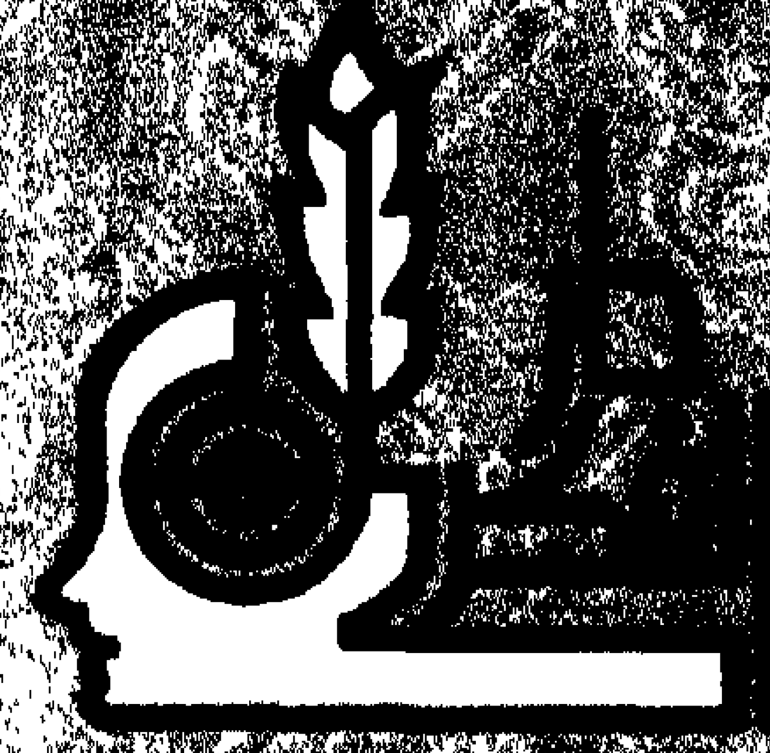
بريد إلكتروني :

....

رقم الحساب في بنك القارئ النهم :

....

رقم ٤٠١٦٤٩ ٢



كثيراً لذكر المتصوفين، وتفاصيل أقوالهم وحياتهم فإنه يمكننا تصورها زوجةً وأماً تؤدي واجباتها إلى جانب تصوفها، مما يعني إدراكها لمبدأ الاستخلاف، فهي وإن عانت تشتتاً بين واجباتها الدنيوية وتطلعاتها الروحية، إلا أنها لم تتخلَّ عن تلك الواجبات، انطلاقاً من وضوح فكرتها عن التكليف والإعمار، فإذا كان الجسد حقيقة فانية، وثوب ابتلاء من الله، لامتحان حقيقة الروح، فقد استطاعت المتصوفات اجتياز الامتحان متساميات على واقعهن بالرغم من ماديته، لا عن طريق الهروب من الدنيا - كما فعل بعض المتصوفين - ولكن عن طريق تحويل الحياة إلى لذة عظيمة وقراءة هادئة، مستشفات العدل الإلهي، وإرادته وحكمته، علّنا في مسعانا لرفع الظلم عن المرأة المعاصرة نسترشد بخطاهن، فنرفع درجة إيماننا واستشعارنا الفطري بالعدل الرباني في مواجهة جمود الفقه الإنساني وتحيزات الفقهاء. ما أحوج نساء اليوم إلى تصفح سيرة المتصوفات للاقتداء بهن في مواجهة أمراض العصر المادي وآفات السلوك الاستهلاكي الذي أدمنت عليه المرأة حتى استعبدها[1].

أما عن المرأة المفتية، فإن وظيفة الإفتاء تعدّ من أهم الوظائف التي يمارسها الفقيه، حيث إنها عند تمامها طبقاً لشروطها، تصير

---

(١) عزة جلال، سيرة المتصوفات في التاريخ الإسلامي، ص ٨١ - ٨٨ بتصرف واختصار، نقلاً عن ملف المرأة في نشرة المرأة والحضارة، مصدر سابق.

باباً مفتوحاً للاجتهاد والتواصل بين أصل الدين، وبين واقع الناس المتغير في كلّ عصر. وفيما يتعلق بتولي المرأة الفقيهة لهذه الوظيفة، فقد نشأت في العصر الحديث، وبالأخص في الفترة الحالية في المجتمعات الإسلامية، فجوة عميقة بين الإسلام وفقاً لنصوصه وقواعده الشرعية التي لا تمنع تولي المرأة منصب الإفتاء من ناحية، وبين واقع المجتمع وواقع السلطة وتوزيعاتها داخله، أياً كان نوع هذه السلطة ومصدرها، من ناحية أخرى، بما شكل عائقاً أمام النساء المتفقهات واشتغالهن بالإفتاء، إذ لم تعد الإشكالية إشكالية نصوص، ولكن إشكالية عادات وتقاليد، ومفاهيم مترسخة، وعلاقات بالسلطة هي أقوى من النص الديني نفسه.

ثار الجدل في السنوات الأخيرة في أروقة جامعة الأزهر، ودار الإفتاء بالقاهرة، حول تولي سيدة منصب الإفتاء للنساء، فقد ظلت المتفقهات محرومات من الاشتغال بالإفتاء لقرون منذ الخلافة العثمانية وسيطرتها على العالم الإسلامي، ولم تتولَّ هذا المنصب في مصر سيدة لأزمنة طويلة، لا تعرف حدود بدئها بالضبط.

وعندما أثارت الدكتورة سعاد صالح أستاذة الفقه الإسلامي بجامعة الأزهر هذه القضية، وطالبت بموقع لها مفتية للنساء، لقيت معارضة زملائها الرجال في مؤسسات السلطة الدينية، ولم

يمكنوها من تولي هذا المنصب، لا هي ولا غيرها من النساء حتى الآن، ذلك بالرغم من أنها على درجة الكفاية العلمية التي يتمتع بها مفتي الجمهورية، فهي في تخصصه، وتجلس معه على قدم المساواة في اللجنة العلمية الدائمة لأساتذة الفقه بجامعة الأزهر، لترقية الأساتذة من الرجال والنساء على السواء. تؤكد هذه الأستاذة أنها لا تسعى وراء منصب رسمي، وإنما تبغي مساعدة بنات جنسها وإفادتهن.

الواقع أن مؤسسة الفقه منذ القرون الأولى لتشكلها كانت أكثر نضجاً مما هي عليه اليوم؛ فقد انتبهت لحاجة النساء الخاصة إلى مفتيات من الفقيهات ليفتين في شؤونهن الخاصة، فمن شروط المفتي الأساسية، «معرفة الناس؛ لأن الجهل بأحوالهم يفسد بالفتوى أكثر مما يصلح»[1]. وللنساء أحوالهن الخاصة التي مهما بلغ الفقيه الرجل من العلم لا يستطيع إدراكها كاملة؛ لذلك اتفق العلماء، على أن الفتوى تصح من الرجل ومن المرأة على السواء، وليس شرطاً أن يتولى الإفتاء الرجال دون النساء، ولا يشترط في المفتي - طبقاً لأبي المعالي الجويني - سوى طلب العلم، ولم يمنع النساء من شغل المنصب. كما تشير الدراسات حول المرأة والإفتاء أن الذكورة - بإجماع العلماء،

(١) علي حسب الله، أصول التشريع الإسلامي، ص ١١١ - ١١٢، عن نشرة المرأة والحضارة، ص ٧٨.

من فقهاء، ومحدثين، وأصوليين، ومفسرين - ليست شرطاً في المفتي، وأن المرأة من حقها تولي منصب الإفتاء سواء للرجال أم النساء، لا مانع من ذلك شرعاً، وأن شروط المفتي هي: العدل والأمانة والعلم، وهي مما يتوافر في الكثير من السيدات المتفقهات، فالنصوص الشرعية كلها تؤكد على صلاحية المرأة للإفتاء وللقضاء أيضاً[١].

وعلى مستوى الممارسة في الواقع التاريخي الإسلامي تظهر هذه الدراسة العديد من السيدات اللاتي جلسن للإفتاء، في المذاهب المتعددة، وفي المراحل التاريخية والبلدان المختلفة. لا بدّ أنه قد توافرت في تلك السيدات الشروط التي وضعت للمفتي من كونه ثقة مأموناً منزهاً عن سقطات المروءة، فقيه النفس، سليم الذهن، رصين الفكر، صحيح التصرف، والاستنباط، متيقظاً، إضافة إلى علمه بالعلوم الدينية المختلفة من قرآن وحديث، وعلم الناسخ والمنسوخ، وعلمي النحو واللغة، واختلاف العلماء واتفاقهم، وحفظه للفقه، ومعرفته باستنباط الأحكام[٢].

(١) عن دراسة قدمتها الدكتورة سعاد صالح حول هذا الموضوع، جريدة الأهرام القاهرية ٢٢/ ١/ ١٩٩٩.

(٢) شروط المفتي وأنواع المفتين: ابن صلاح الشهرزوري، ص ٨٥ - ٨٧، عن نشرة الحضارة ص ٧٨، رسالة لطيفة في النساء المفتيات، زينب أبو المجد، مقتطفات من الموضوع بتصرف واختصار.

في تعقيب وخلاصة لملف سيرة المرأة نحو منظور حضاري لقراءة سيرة المرأة المسلمة وتاريخها تقول الدكتورة منى أبو الفضل: عندما نحاول استقراء سيرة المرأة، فإننا نحدث كشفاً مزدوجاً للإسهام في بناء المعرفة حول تاريخ المرأة المسلمة، وإعادة اكتشاف في الوقت نفسه، في محاولة لتأكيد هويتنا الحضارية، ومراجعة داخلية تنمي الإدراك، والتفكر بالذات، وتشحذ الوعي حول بعض الأسئلة الكبرى مثل من أنا؟ وما دوري في الحياة؟ وأين أنا من ذلك؟ ولماذا؟ وإلى أين؟ وفي سعيٍ لكشف إشكالية المنظور المعرفي لمقتضيات التكافؤ مع الواقع الاجتماعي، والمنتج الثقافي، وخصائص الحضارة الإسلامية، وكيف أن الاهتمام كان من الرجال والنساء باللغة العربية لغة القرآن، وحفظ الحديث وروايته، حاولت الباحثات الكشف عن التاريخ الاجتماعي.

حاولت باحثات ملف المرأة، تجاوز التاريخ الرسمي إلى قراءة التاريخ الاجتماعي، باحثات فيه عن المرأة المسلمة، من داخل المنظور الحضاري المستند إلى هدي القرآن؛ فكرة النفس الواحدة التي خلق منها الإنسان بشقيه، مبدأ التكريم، والتكليف، التقوى كمعيار للتمايز عند الله، مفهوم السلطة؛ أهي للقوة وعلاقاتها، أم هي للحق والمرجعية، الأقرب إلى الفكر النسوي السائد، هو امتلاك القوة، إنشاء المرأة القوية (وليس المرأة

الفاضلة) أما الأقرب للدلالات الإسلامية فإن السلطة والطاعة والخضوع إنما تكون لله في إطار عقيدة جامعة. يقول سبحانه: ﴿وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٣٥]. فصفة الخضوع لا ترتبط بنوع، ولا بوضع اجتماعي معين، بل هي تنسحب على المؤمن والمؤمنة، عن رضا واختيار، وعلى غيرهما عن اقتضاء وقدر؛ فالبشر جميعاً يسلمون لله تعالى ﴿مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾، والإنسان في الأصل لا يملك فرض سلطته على آخر أياً كان موقعه؛ حاكماً كان أم زوجاً أم أباً، كلّ فراعنة الأرض اغتصبوا السلطة بالقوة لا بالحق .﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٩/ ٧١] الولاية مبدأ أساسي عام لتضامن الأمة، ينبغي التميز بينها وبين القوامة التي اختصت في مجال التكاليف والمسؤوليات في حيز الأسرة، أما مسألة المساواة فهي في الإسلام تبدأ من المستوى الوجودي وهو الخلق من النفس الواحدة، فالتميز قوامه الإيمان والتقوى، وحول تلك النفس تنبني الأحكام الشرعية الأساسية، تحريم قتل النفس، تكريم النفس.. فالمرأة نفس، كيان مستقل، لها كرامتها ومسؤوليتها وتكاليفها التي تأتي على السواء مثل الرجل، الأمر الذي ترسخ في النظام العقائدي والقيمي والشرعي للإسلام؛ لذلك يجب ألا ينظر إلى المرأة بجنسها، كما تفعل الجمعيات النسوية، بل ينظر إلى دورها العمراني، وإلى الفعل الذي تقوم به في سياق هذا الدور.

أعطى الهدي الإلهي اهتماماً خاصاً بالمرأة، فخصص لها موقعاً وخطاباً في رسالته الإصلاحية، كي يحفظ حقوقها، ويرسخها ضدّ مكاييل القوة والأهواء في عصور مختلفة، فالأولى بنا ونحن نقوم باستجلاء صورة المرأة في تاريخنا، أن نعود إلى المصادر الأساسية. ومن حسن حظنا أن مصادرنا واضحة وراسخة، وهي فقط في حاجة للتأمل، بعد الكشف والمراجعة والتنقيح.

إن قراءة سيرة المرأة وتاريخها تعطي الفرصة للكشف عن القضايا الأشمل للأمة، وتفتح السبيل أمام الآخرين للتعامل مع التاريخ الإسلامي، بحيث لا تصير قضايا المرأة هدفاً بحدّ ذاته، لكنها تغدو مدخلاً في غاية الأهمية عند استهداف قراءة منهجية لآليات الفعل والتفعيل الحضاري للأمة. أظهرت هذه الدراسة أن حضور المرأة كان واسعاً وغير محدود في التاريخ الإسلامي، منذ مراحل التأسيس الأولى، من حيث المسارعة إلى الإيمان؛ الابتلاء، الهجرة، المبايعة، الشهادة، وما ترتب على ذلك من استحالة إغفال المرأة في وعي الأمة وذاكرتها، خاصة وقد اختصت نساء النبي وآل بيته (أمهات المؤمنين) بمكانة مميزة ورد ذكرها في القرآن، في مؤشر ذي دلالات للتأكيد على فاعلية المرأة وموقعها من الأمة مفهوماً وتعبداً، لا ننسى أن الصلاة على النبي تشمل آله وأزواجه، وأصحابه، على الرغم من المدّ الذي خلفته الثقافات والطبائع في تقليص دور المرأة في مرحلة تالية، وما كان

لذلك من تأثير في عقلية فقهية، توسلت بدرء المفاسد ومنع الفتن لتقييد المرأة، فإن الوهج الذي أوجدته التنشئة الأولى ظلّ جزءاً في الوعي الفاعل، فكان المؤرخ شاهداً على ذلك وهو يؤرخ لجيل الصحابة، فيكتب عن الصحابيات، اقتضاء للأمانة العلمية، وحفظاً لتراث النبوة وسيرة الأمة.

قام الإسلام بالأساس على العلم لا على السياسة، وكان قوام الأمة بعناصرها الفاعلة وليس الدولة. الأمة هي وعاء القرآن، وبه قوامها، ومن ثم برز معلمو القرآن، وأهل العلم في التاريخ، فذُكرت المرأة العالمة والعابدة والفقيهة والزاهدة وصاحبة المشيخة وصاحبة المقام؛ إذ ارتبط دور المرأة ومكانتها بمقامها في علم الدين، عجز المجتمع بأعرافه، والسياسة بسلطانها عن حرمانها من ذلك المقام، فالعلم كان جزءاً من الدين ومعايير العالِم الموضوعية لم تكن تخضع لجنس أو نوع.

مثلت هذه الدراسة الهادفة نموذجاً فريداً من التحرر على مستويين، المستوى العقلي والذهني المنهجي، والمستوى الذاتي التجريبي. تحرر هادف لأنه يقوم على الوعي والانتماء معاً، في محاولة للانطلاق وتجاوز الواقع المتردي، المحاط بالقيود، وذلك نتيجة للصلة بالله سبحانه وتعالى من خلال التوحيد، وشعور عظيم بالمسؤولية الملقاة على عاتق مؤمنة اليوم، لإيجاد مخرج من مأزق نخبة وجيل، مأزق تشكّلَ إثر واقعة الصدمة الحضارية التي

جعلتنا نهيم هياماً داخل متاهات المجتر، والمغتر؛ الاجترار من جهتين من جهة الغرب، ومن الأقدمين، والاغترار بالقوالب الفكرية القائمة على الجهتين، متاهات يشكو الجميع من ثقلها، لا يخرجنا منها إلا العودة الواعية إلى طريق يمثل خير ما جاءتنا به سيرتنا في صدر الإسلام، وفيها نتمثل مناخ الوعي الذي حملته الرسالة، وما ارتبط بها من الرشاد، والانفتاح والثقة، والنهم للمعرفة، داخل إطار من (التعالي)، تعالي ثقافة الميزان التي تنتشلنا من فيزياء الأواني المستطرقة، التي تجعلنا كلما أردنا التحرر من شيء، انجرفنا إلى تيار آخر مقابل له(١).

أسهبت طويلاً في حديثي عن المرأة، لأني أعتقد - ومعي يعتقد الكثيرون - أن سبب كبوة الأمة هو تراجع المرأة المسلمة وانزواؤها في ركن شهواتها وأهوائها، وتخليها عن عهدها لربها وبيعتها لرسوله، عندما تتجه بشهادتها الإيمانية أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، بينما هي تنقض ذلك العهد وتلك البيعة في أغلب مفردات حياتها. رافقت باحثات ملف سيرة المرأة وهن يستخرجن من بطون كتب التاريخ والسير والتراجم مسيرة المرأة المسلمة، الفاعلة منذ انتمائها لهذا الدين، فوجودها واضح في كلّ مراحله عندما أتيح لها أن تشارك في البيعة والشورى

---

(١) مختصر من تعقيب أ. د. منى أبو الفضل، على ملف نحو منظور حضاري لقراءة سيرة وتاريخ المرأة المسلمة، ص ١٥٩ - ١٦٦، بتصرف، نشرة المرأة والحضارة.

والجهاد، وعندما تمّ إبعادها المتعمد عن مسرح الحياة العامة، انكبت على علوم عصرها، جنباً إلى جنب مع الرجال تتعلم وتعلم، وحين ضيق عليها أكثر في عصور التخلف عمدت إلى التصوف تحقق فيه ذاتها وتناجي ربها، وتستلهم الزهد في حياتها.

لم يبقَ لمسلمة اليوم العذر في أن تستمر في الندب والنواح الذي أدمنته حتى صار جزءاً منها، من أن أحكام الإسلام جارت عليها، أو أن الرجل قهرها، وأنها مهيضة الجناح لا حول لها ولا طول، فإذا هي عرفت ربها، ووعت تاريخها، ووثقت بما منحها إياه ربها، فعملت على المشاركة في البناء، وإعادة النهضة من موقعها الذي تشغله في الحياة، فما أظن أن أحداً يملك منعها من ذلك، فالذي يثبت ذاته ويؤدي دوره لا يستطيع كائناً من كان أن يثنيه عن عمله.

وقفت معجبة بالنقل الواعي المؤمن الجاد، لاستخراج الحقائق من النصوص بعيداً عن تجديف بعض المبهورات بالحقوق النسوية، والمطالبة بها، فقد انتقدت إحداهن في محاضرة لها المسلمين على ظلمهم للمرأة، الذي ابتدأ في نظرها، منذ أن أعرض رجال السقيفة عن انتخاب السيدة عائشة خليفة لرسول الله!! بينما طالبت أخرى، بفرض حضور الجمعة على النساء أسوة بالرجال، وأخرى طالبت بالتعدد للنساء كما هو للرجال!! أو التي أمت الناس وخطبت فيهم!!

إن الفراغ الكبير الذي تركته المسلمة الواعية بتخليها عن مسؤولياتها في الاستخلاف والإعمار المكلفة بها، أوصلنا إلى ما نحن فيه، ولا يخرجنا منه إلا جيل من الأمهات الواعيات، المدركات لما يدور حولهن، اللواتي عوفين من الأنانية وعبادة الذات، لتنشئة أجيال قادمة تؤمن بربها، وتثق بدينها، لا تعرف الخوف إلا من خالقها.

إنها فترة ذهبية قد لا تعوض، تعيشها المرأة الآن، الرأي العالمي بأجمعه ينادي بإعطائها حقوقها، وكل دولة تحاول الانتساب إلى المعاصرة تسارع إلى سنّ قوانين تنصف المرأة، فعليها وحدها الآن يقع عبء المسؤولية في أن تغادر صفوف المتفرجين، وتنزل إلى ساحة الحياة فتؤدي دورها الواعي والفاعل، فقد أخليت تلك الساحة منها أمداً طويلاً، وكان لدورها السلبي الذي مارسته برضاها، أو على كره منها، أثر كبير في ظهور تشوهات كبيرة في كثير من مناحي الحياة والأحياء، كلّ الأبواب مفتحة لها الآن على مصاريعها، أبواب العلم والعمل، وأبواب الهداية والبناء، وأبواب السلبية والإغواء، فليس لها أي عذر تتمرس خلفه لتبرر عدم فاعليتها، لعلها إن أضاعت هذه الفرصة، لن تقوم لها قائمة بعد الآن، فالمرأة وشأنها وعليها أن تختار إما أن تبقى جاهلة، وتترك النساء حولها يسبحن في مراتع

الجهل، والعلم أصبح متاحاً للمرأة في بيتها في زمن الإعلام المفتوح، وثورة الاتصالات، ولعلّ الله سائلها عن المواهب التي أودعها الله فيها، وعن الإمكانات المتاحة لها لتلقي العلم ونشره، وعلى سوء إنفاقها لوقتها، ولمالها ومال زوجها وبلدها، ولسوء رعايتها لمن هي مسؤولة عن رعايتهم، وأما أن تعقلن عواطفها وتؤدي دورها الإيجابي في الحياة.

البشرية التي اختل توازنها وظهر الفساد في برّها وبحرها وشتى بقاعها، في انتظارك أيتها المؤمنة الواعية، لتقدمي لها أُنموذجاً آخر من البشر، إنساناً متوازناً لا تطغى عليه أنانيته اليومية فينسى غده وغد غيره، الإنسان الواعي لثقافته، التي لا تسمح له أن يكون مستعمِراً مستكبراً ولا مستعمَراً، ولا مستضعفاً، إنساناً لا يتخلف ضميره عن قيمه التي أنزلها الله على لسان رسله لتستقيم الحياة على الأرض، ويرتاح كل مخلوق في هذا الكون. إن من أسباب تخلف العالم الغربي الأخلاقي اكتفاءه بالبعد الأرضي، ومن أسباب تخلف العالم الإسلامي الحضاري اكتفاؤه بالبعد السماوي حسب ظنه، متغافلاً عن قوله تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ [القصص: ٢٨/٧٧]. هذا النموذج من البشر هو الذي تنتظره البشرية ليقودها إلى الرشد والعدل والإحسان، فكلما

ازداد وعي الإنسان لثقافته ازداد عطاؤه، فالوعي مرتبط بالأخلاق، والوعي الذكي النافع المتوازن هو أمل البشرية لإنقاذها من مستنقع تدمير ذاتها، ألم ينتهِ عهد النوم والتشاغل والتغافل، ويبدأ عهد الجد والعمل، أختي المؤمنةَ الواعية؟!!

وتبقى الأزمة أزمتنا التي تبدو ظاهرة للجميع، إلا لنا؛ فإننا نحاول الهروب من الاعتراف بها تارة نهرب إلى ماضينا المجيد، وطوراً نحلم بمستقبل مشرق نتمنى الوصول إليه، هذه الأحلام التي تجعلنا ننسى أننا لا نملك إلا لحظتنا التي بين أيدينا، فإذا أضعناها نكون قد ضيعنا أكبر جزء من الرأسمال الذي نملك وهو الوقت؛ الذي نسفحه على أعتاب الحسرة على ما فات والأمل فيما سيأتي ، ونحن - شئنا أم أبينا - نقف على أعتاب تغيير كبير في حياة الإنسانية، وفي ظلّ العالمية أو العولمة، وكلّ التفسيرات والشروحات التي أحاطت بتلك المصطلحات الجديدة، فلسوف تموت قيم كثيرة، ويقوم غيرها مما ينفع الناس. لم تعد مشكلتنا أن نكون متحضرين أو متخلفين، متفقين أو متخالفين، أصبحت المشكلة أن نكون أو لا نكون. لا بدّ لنا من تبديل بعض المفاهيم من التراث فات أوانها، بمفاهيم أخرى نجدها في التراث أيضاً، وبعد ثورة الاتصالات التي جعلت الكرة الأرضية قرية كبيرة، وجعلت الناس جميعاً جيراناً في عالم واحد، لم يعد في مقدور جماعة أو أفراد أن يعتبروا أنفسهم دار الإسلام وكلّ من خالفهم

دار حرب من الواجب ممارسة الجهاد فيهم، علينا أن نحسن جوار من له حق الجوار في الإنسانية، وأخذ الأمور بشيء من التواضع الفكري العالِم، فليس الغرب كله عدواً يتربص بنا الدوائر، لا شك أن الغرب لا يمكن اختصاره بوجه واحد، يمكن القول بأن للغرب وجهاً أساسياً، هو الذي نعرفه، لكن للغرب وجوهاً أخرى متعددة، والطريقة التي تورطنا فيها جميعاً في نقدنا للغرب، هي إضفاء صفة واحدة عليه، ونزعة واحدة تسوده، دونما تمييز بأن هناك اتجاهات وتيارات ووجوهاً أخرى للغرب، نخطئ إذ نتجاهلها؛ هناك الغرب الفكري، والغرب الحضاري، فلا بدّ من إعادة النظر، فليس الآخر دائماً وجهاً واحداً، إنما هو مختلف ومتعدد، قد يفيدنا في بعض جوانبه.

كذلك فإن القارة الأميركية لا تختزل في بوش، الذي نعتبره شيطاننا الأكبر، يمنعنا من ممارسة إصلاح ما فينا. عندهم كثير من الصواب الذي نحن بحاجة إليه، لنصلح من شأن دنيانا التي فيها معاشنا، وعندنا أشياء هم بأمس الحاجة لها لإصلاح معادهم، يمكن أن نقدمها لهم. من مصطلحات مالك بن نبي الفكرية: إن العالم الغربي ليس بحاجة إلى صناعة جديدة يتعلمها منا فقد بلغ الذروة في العلوم المادية، لكنه الآن في قمة إفلاسه القيمي والأخلاقي، وهو أحوج ما يكون إلى ما عندنا من قيم فكرية نعلمها للناس، إذا أحسنا تقديمها بشكل عملي.

يقول الدكتور طه جابر العلواني: إن فهم الواقع لم يعد أمراً بديهياً وضرورياً، بل هو أمر في غاية الضرورة والتعقيد، لأن الفتوى التي تقوم على التصور الذهني، دون إحاطة بالعالم الخارجي، محفوفة بمخاطر الخطأ والزلل والتشويش. إن الفقه الموروث ومثله معه لن يستطيع استيعاب الأنساق الثقافية والحضارية العالمية، بل الذي يستوعب ذلك إنما هو كليات القرآن ومقاصده العليا، وبيانها من سنة رسول الله ﷺ، فنحن لا نسعى لنكون مركزاً للعالم نفرض عليه فقهنا ونظام حياتنا، بل يكفي أن نحاول أن نكون قطباً له نستقطبه حول القرآن، ونعلمه الجمع بين قراءة الوحي وقراءة الكون. ليس وارداً مما علمنا إياه رسولنا الكريم تفقيه النظم الحياتية، بل كان من توجيهاته عليه الصلاة والسلام، الاقتصاد في الفقه والحذر من اتساع دوائر التكليف، فطبيعة شريعته عليه السلام تقوم على مبدأ التخفيف والرحمة ورفع الحرج، لكن مدّ رواق الفقه والأحكام على جوانب الحياة، وتحويل حياة الناس إلى قوائم من أحكام تكليفية ووضعية ظاهرة سلبية، قد تصدم بقاعدة رفع الحرج والرحمة ووضع الآصار والأغلال عن الناس، وهي أمور تمثل أساساً من منهجية الرسالة، فالحلال بيّن والحرام بيّن، وبينهما أمور مشتبهات هي التي ينبغي أن يتوجه اهتمام الفقه إليها لتبيينها للناس، لأن توسيع دائرة التحريم ووضع الآصار، أدى بالمسلم

إلى ازدواج مريع ينغص حياته؛ فقد أصبح موحداً في اعتقاده مشركاً في عمله[١].

كان آباؤنا وأهلونا في بساطة إيمانهم وقبل أن يعقد الفقه الفضائي حياتهم، يعيشون حياتهم بشكل تلقائي هو أفضل بكثير من تعدد وجهات النظر الفقهية التي كبلت تصرفاتنا.

وبعد، فلعلّ من أهم الواجبات الملقاة على كاهل جيلنا، جيل النكبات والنكسات وخيبات الأمل، أن نتمتع بشيء من الجرأة الأدبية، لنكشف عيوبنا وأخطاءنا، معترفين بها محاولين إصلاحها، داعين الأجيال الشابة منا إلى تجنبها، والمشاركة معنا في محاولات المعافاة منها، لا أن يوصلنا الغرور والاستكبار إلى توريثهم إياها، مع رؤيتنا لضررها الواضح.

هل نملك الشجاعة لكشف أخطائنا التي أدت إلى إخفاقنا الحضاري، والإساءة إلى سمعة ديننا الحنيف، في فترة أعمارنا التي استضافتنا الحياة فيها، وبدل أن نتركها خيراً مما كانت عليه قبل ورودنا إليها، سنتركها ملوثة بسوء ممارساتنا؟

هل نجابه أبناءنا، بأن نقول: هذا ما فعلناه، مخطئين أو مصيبين، فتجنبوا أخطاءنا، واصنعوا لأنفسكم غداً أنظف

(١) عن إسلامية المعرفة، د. طه جابر العلواني، ص ١٢٣ - ١٢٤، بتصرف واختصار، مناهج التجديد، مصدر سابق.

وأفضل من اليوم الذي صنعناه لكم؟ حتى لا تمضي بنا الأيام والأعوام أجيالاً وأمماً يلعن بعضها بعضاً ويكفّر ويخطئ بعضُهم بعضاً!!

خاتمة

وأخيراً، فاعلم أن لا أحدَ يستطيعُ أن يجعلك تتغير ما لم تقرّر ذلك بنفسك؛ إن بوابة التغيير مقفلة بقفل داخلي، إن لم تفتحه أنت فلا أحد يستطيع ذلك، ربما يحثك الناس ويشجعونك، ولكن أنت وحدك من يقرّر بداية التغيير... فلكل منا أفكاره ومعتقداته وآراؤه، لا يمكنني أن أؤثر في أفكارك ومعتقداتك، أو أن تؤثر فيّ إلا عندما نتفق على ذلك... يمكنك أن تؤثر فيّ عندما تعيش مثالاً جيداً في الحياة.. أُعجب به.. وعندها يمكن أن أفتح لك قلبي وعقلي دون أن أسمع منك كلمة واحدة.. نخطئ عندما نتحدث عن قائد استطاع تغيير أمته، إنما دعاهم إلى تغيير أنفسهم، فاستجابوا لدعوته فغيروا[١].

واعلم أنك أمام خيارين؛ أن تستمر في المجتمع والظروف والبيئة، فلا تحقق أي تغيير في نفسك وفيمن حولك، ولا أن تختار أهدافك وتعمل على تحقيقها، فتكون مطية لتحقيق أهداف

---

(١) الإنسان الفعال، جمال جمال الدين، ص ٤٢٧، دار الفكر، الطبعة الأولى ٢٠٠٤.

الآخرين، وهملاً وعابر سبيل في الحياة دون شأن ولا أثر. إن الحياة صعبة وتركُ أثرٍ فيها أكثر صعوبة، إنها حقيقة لا بدّ من قبولها؛ فقبولها والاستعداد لها، يجعلها أقل صعوبة.

التغيير ليس عملية نبدؤها غداً صباحاً، أو أوّل يوم من العام الجديد، فنتوقع أن نغير أفكارنا، وعاداتنا، وسلوكنا بين يوم وليلة، إنها عملية تحتاج إلى الممارسة وقبول الفشل وخيبات الأمل كواقع طبيعي، وتكرار المحاولة، مرة بعد أخرى، ويوماً بعد يوم[(١)].

ومع كلّ المعوقات لكن لا بدّ من أن نبدأ...

(١) الإنسان الفعال، جمال جمال الدين، ص ٤٢٩، دار الفكر، الطبعة الأولى ٢٠٠٤

المصادر

١ - القرآن الكريم.

٢ - الحديث الشريف: رياض الصالحين، الجامع الصغير للسيوطي، تيسير الوصول لأحاديث الرسول، موقع إلكتروني، موقع المحدث، صحيح البخاري جزء ٦.

٣ -إشكالية التحيز، د. عبد الوهاب المسيري، إصدار المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الطبعة الثالثة، ١٩٩٨.

٤ - د. مصطفى المرابط، محاضرة ألقاها في مكتبة الأسد بتاريخ ٢/٧/ ٢٠٠٥.

٥ -الاستشراق، إدوارد سعيد، مؤسسة الأبحاث العربية، الطبعة الثانية ١٩٨٤.

٦ - شروط النهضة، مالك بن نبي، دار الفكر ٢٠٠٥.

٧ - مشكلة الثقافة، مالك بن نبي، دار الفكر، ٢٠٠٥.

٨ - ميلاد مجتمع، مالك بن نبي، دار الفكر، ٢٠٠٥.

٩ - سبيل الدعوة الإسلامية، د. أمين المصري، دار الأرقم، بدون تاريخ.

١٠ - صورة الإسلام في الإعلام الغربي، د. محمد بشاري، دار الفكر، طبعة أولى، ٢٠٠٤.

١١ - العالمية ورسالة الحضارة في فكر مالك بن نبي، عمر مسقاوي، طبعة دار الفكر، ٢٠٠٥.

١٢ - حتى يغيروا ما بأنفسهم، جودت سعيد، دار الفكر ١٩٩٨.
١٣ - د. ماجد عرسان الكيلاني، سلسلة أصول التربية الإسلامية، مكة المكرمة، مكتبة هارون، الطبعة الرابعة ١٩٨٤.
١٤ - أبعاد غائبة عن الفكر الإسلامي المعاصر، حوار مع د. طه جابر العلواني، تحرير عبد الجبار الرفاعي، دار الفكر، ٢٠٠٠.
١٥ - الخطاب العربي المعاصر، د. عابد الجابري، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٨٨.
١٦ - تكوين العقل العربي، د. عابد الجابري، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، طبعة ثالثة، ١٩٨٤.
١٧ - بنية العقل العربي، د. عابد الجابري، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، طبعة ثانية، ١٩٨٧.
١٨ - البوصلة القرآنية، أحمد خيري العمري، إصدار دار الفكر، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣.
١٩ - جودت سعيد، حوار مع عبد الجبار الرفاعي.
٢٠ - إصلاح منهجية الفكر الإسلامي، د. عبد الحميد أبو سليمان، حوار عبد الجبار الرفاعي.
٢١ - شابينا بيغوم، جريدة الشرق الأوسط، ٢٦ آذار ٢٠٠٥.
٢٢ - اللغة والاقتصاد، عالم المعرفة، العدد ٢٦٣.
٢٣ - مسلمة على أعتاب القرن، كواكب الملحم، الطبعة الأولى، ١٩٩٨، توزيع مكتبة الأوقاف.
٢٤ - أولويات الحركة الإسلامية، د. يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، ١٩٩٢.

٢٥ - المرأة من وراء جدر، جميلة كدور، دار الفكر، طبعة أولى، ٢٠٠١.
٢٦ - الشرق الأوسط، عالم يعود عن فتواه، ١٩ نيسان ٢٠٠٥.
٢٧ - عائشة في بيت النبوة، الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي.
٢٨ - عائشة والسياسة، د. سعيد الأفغاني، دار الفكر.
٢٩ - دورية المرأة والحضارة، العدد ٢، ٢٠٠١.
٣٠ - الإنسان الفعال، جمال جمال الدين، دار الفكر، طبعة أولى ٢٠٠٤.
٣١ - دنيا المرأة، الشيخ حسين فضل الله، دار الملاك.
٣٢ - الشيخ حسين فضل الله، المرأة بين واقعها وحقها في الاجتماع السياسي، عن تأملات في منزلة المرأة في القرآن، السيدة حنان لحام، دار الآفاق والأنفس، طبعة أولى ١٩٩٦.
٣٣- عباس محمود العقاد، ردود وحدود، دار الكتاب الحديث - الكويت، دون تاريخ، من قالة له في الرسالة، ٣١ أيار (مايو) ١٩٤٣.
٣٤- قاسم أمين، تحرير المرأة، منشورات دار المعارف للطباعة والنشر، سوسة - تونس.

مستخلص

كتابٌ يتناول مشكلات فكرية معاصرة وعوائق تقدم الشرق بين العادات البالية وتشويه الغرب.

تضـــمن الكتاب عشرة فصولٍ سبقها توطئةٌ ومدخل. الفصل الأول (الصراع الأزلي) تحدثت به المؤلفة عن الأفكار التي يحملها الغـــرب ولا ســـيما المستشرقين منهم ضد الإسلام. وعجبتْ في (ولومـــوا أنفســـكم) من سكوت المسلمين عن الصورة المشوهة بحقهم وعدم التحرك للإصلاح. وحاولت في (آلية التغيير) أن تهز غـــراس المسلمات التي اشتد سوقها، لعل الضعيف منها يسقط. وركزت في فصل (بين النظرية والتطبيق) على فكرة العمل الذي ينـــبغي أن يحقق النظرية. وبينت في (منهجية التغيير) الأسس التي ينبغي الانطلاق منها للتغيير.

وتحدثت في فصل (عثرات في طريق النهوض) عن المشكلات الـــتي تحـــول دون مسيرة الحضارة، ولاسيما ما يتصل بالأخلاق. وحمل فصلها (الخطاب العربي المعاصر) غُصَّةً بسبب تدني مستوى الخطـــاب الإسلامي قياساً على الخطاب المدروس عند الآخرين. وفي حديثها عن (حرية الرأي) أشارت إلى توسيع دائرة التقديس واهتمامنا بعالم الأشخاص أكثر من عالم الأفكار. وتألمت كثيراً في مقالها عن (لغتنا العربية) بسبب السياط التي تنزل عليها من أبنائها وأعدائها على حدٍّ سواء. وختمت الكتاب بفصل (يسألونك عن المـــرأة) لتضـــع فـــيه مسائل عديدةً حول المرأة وثوابت ينظر بها بعضُهم إليها، راجيةً أن يمحصها المصلحون.

Abstract

"Would That my people worked!" tackles contemporary intellectual problems and the obstacles of decrepit customs and the West's distortion which prevent the East from development.

The book involves ten chapters preceded by a preface and an introduction. In chapter I "The Ancient Struggle", the writer talks about the ideas that the West and orientalists in particular bear against Islam. In chapter II, "Blame Yourselves!", she wonders as concerns the Muslims' keeping silence regarding the distorted picture expressing them and their immobility towards reformation. In chapter III, "Change Mechanism", she tries to shake the Muslim women so that the weak growths among them might fall down. In chapter IV, "Between Theory and Practice", she focuses on how action should realize theory. In chapter V, "The Methodology of Change", she lays the bases which should represent our starting point towards change.

In chapter VI, "Obstacles on the Way of Resurgence", she discusses the problems which stand on the way of the process of civilization, directing special attention to those related to morals. Chapter VII, "The Contemporary Arab Discourse", bears a choke resulting from the low standard of the Islamic discourse when compared with the others' deliberate one. In chapter VIII, "Freedom of Opinion", she refers to broadening the borders of sanctifying and paying more attention to the world of people than the world of ideas. In chapter IX, an article about "Our Language, Arabic!", she grieves a lot for witnessing it struck by the whips of both its children and enemies. By chapter X, "When Asked about Women,..", she concludes the book, presenting several questions about women, referring to stable points from which certain people look at the gentle sex and expressing her hopes that reformers take them into consideration.

Would That My People Put What They Know to Practice

Yā Layta Qawmī Ya'malūn bi-mā Ya'lamūn

Hidāyat Sālim

- ماذا عن مشكلات الشرق التي تتكاثر يوماً بعد يوم وتعيق النهوض؟
- ما الذي يحمله الغرب في ذهنه عن صورة المسلمين والإسلام؟
- ماذا عن الصورة المشوهة التي لا يريد المسلمون أن يصلحوها؟
- ماذا عن الفصل بين النظرية الرائعة والتطبيق المتقاعس إن صح التعبير؟
- ما الأسس التي ينبغي علينا اتباعها للنهوض؟
- وماذا عن اللغة العربية التي نسيء إليها؟
- وماذا عن المرأة؟

كل ذلك يتناوله الكتاب الذي يعدّ صيحة اجتماعية تقتضي منا التفكير من أجل التغيير، جاء بأسلوب سهل لطيف.

